الأثر المحوري للمدرسة الحليَّة

في صياغة الفكر العرفاني الإمامي (ق هـ ٧-٩)

علي حسن أحمد القطان البستاني

النجف الأشرف

Aliqattan2025@gmail.com

رابط البحث: https://doi.org/10.62745/muhaqqiq.v11i29.422

الملخص

يستعرضُ البحثُ الأثرَ المحوريَّ الذي اضطلعتْ بهِ المدرسةُ الحليَّةُ في إعادةِ صياغةِ الفكرِ العرفانيِّ الإماميِّ خلالَ القرنينِ السَّابعِ والتَّاسعِ الهجريين، ويسلطُ الضوءَ على الدورِ الريادِيِّ لأقطابِها كالسيدِ حيدرِ الآمليِّ، وابنِ فهدٍ الحليِّ، وابنِ طاووسٍ، والشّيخ نصيرِ الدّين الكاشاني الحلّي في جسرِ الهوةِ بينَ الفقهِ والشهودِ الباطنيِّ، وتحويلِ العرفانِ من نزعاتٍ فرديةٍ إلى منهجٍ علميٍّ متكاملٍ ومنضبطٍ بالضوابطِ الشرعيَّةِ، ويحللُ البحثُ كيفَ إسهامِ هذهِ المدرسةُ في استيعابِ التراثِ الصوفيِّ (مدرسةِ ابنِ عربيٍّ) وإعادةِ صياغتهِ ضمنَ القالبِ العَقَديِّ الإماميِّ، ممَّا أدى إلى ولادةِ «عرفانٍ مُتَشَرعيٍّ» شكَّلَ الهويةَ المعرفيَّةَ والروحيَّةَ لعلماءِ الإماميَّةِ في القرونِ اللَّاحقةِ.

الكلماتُ المفتاحيَّة :

المدرسةُ الحليَّةُ، العرفانُ الشيعي، السير والسلوك، عرفاء الشيعة.

The Pivotal Role of the Hilla School in Shaping Imami Gnostic Thought (7th–9th Centuries AH)

Ali Hassan Ahmed al-Qattan al-Bustani
Najaf al-Ashraf
Aliqattan2025@gmail.com

Abstract

This study examines the pivotal role played by the Hilla School in reshaping and restructuring Imami gnostic thought during the seventh to ninth centuries AH. It highlights the pioneering role of its leading figures, including Sayyid Haydar al-Amuli, Ibn Fahd al-Hilli, Ibn Tawus, and Shaykh Nasir al-Din al-Kashani al-Hilli, in bridging the gap between Islamic jurisprudence and inner spiritual experience, and in transforming gnostic thought from individual spiritual inclinations into a comprehensive and systematic intellectual approach governed by the principles of Islamic law.

The study analyzes how this school contributed to assimilating the Sufi intellectual heritage, particularly the school of Ibn Arabi, and reformulating it within the doctrinal framework of Imami Shiʿism. This process ultimately gave rise to a form of Sharia-compliant Gnosticism, which came to shape the intellectual and spiritual identity of Imami scholars in subsequent centuries.

Keywords:

Hilla School, Shiʿi Gnosticism, Spiritual Wayfaring and Self-Discipline, Shiʿi Gnostics.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

يُعَـدُّ العِرْفانُ الإِسْـلاميُّ ، بنَوْعَيْـهِ النَّظَريِّ والعَمَـلِيِّ، أَحَدَ أَبْـرَزِ رَوافِدِ الفِكْرِ الإِسْـلاميِّ وَأَعْمَقِها تَأْثيرًا في صياغَةِ الرُّؤْيَةِ الكَوْنيَّةِ الإِسْلاميَّةِ، وَفي سِياقِ التُّراثِ الشّـيعيِّ الإماميِّ شَكَّلَتْ القُرُونُ الوُسْطى (لَا سيَّما مَا بَيْنَ القَرْنَيْنِ السّابعِ والتّاسعِ الهِجْريَّيْنِ) مَرْحَلَةً مِفْصَليَّةً لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى ازْدِهارِ الفِقْهِ والأُصولِ، بَلْ شَهِدَتْ تَبَلْورًا وَتَأْصيلًا لِلْمَسائِلِ العِرْفانيَّةِ، والفَلْسَفيَّةِ عَلَى يَدِ فُحولٍ مِنَ العُلَماءِ، وَفي هَذَا الإِطارِ الزَّمَنيِّ وَالمَكانيِّ بَرَزَتِ المَدْرَسَـةُ الحِلّيَّةُ كَمَرْكَزِ إِشْـعاعٍ فِكْـريٍّ وَعَقْلِيٍّ ورحي تَمَكَّنَ مِنَ الجَمْعِ بَيْنَ النَّقْدِ لِلْعَقْلانيَّةِ الكَلاميَّةِ وَبَيْنَ الاسْتِقْبالِ لِلْحَقائِقِ العِرْفانيَّةِ.

تَكْمُنُ مُشْـكِلَةُ هَذَا البَحْثِ في أَنَّ الدَّوْرَ المِحْوَريَّ لِلْمَدْرَسَةِ الحِلّيَّةِ، الَّتي قادَهَا أَعْـلامٌ مِثْلُ الخَواجَـةِ الطّوسيِّ، والسَّـيِّدِ ابْنِ طَـاوُوس، والمُحَقِّقِ الحِلّيِّ، والعَلَّامَةِ الحِلّيِّ، وابْنِ فَهْـدٍ الحِلّيِّ، غالِبًا مَا يَخْتَـزِلُ في إِنْجازاتِها الفِقْهيَّـةِ وَالأُصُوليَّةِ، في حين يَظَـلُّ أَثَرُهـا المَنْهَجيُّ في تَطْويرِ عِلْمِ العِرْفانِ الشّـيعيِّ وَتَأْصيلِه، لَا سيَّما في مَفاهيمِ «الوِلايَةِ» وَ«الإِنْسـانِ الكامِلِ» وَ «السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ»، بِحاجَةٍ إِلَى تَحْليلٍ مُعَمَّقٍ يُحَدِّدُ طَبيعَةَ مُساهَمَتِها قَبْلَ ظُهورِ مَدْرَسَةِ الحِكْمَةِ المُتَعاليَةِ في أَصْفَهان.

فَعِلْمُ العِرْفانِ مِنَ العُلُومِ الَّتي أَثارَتْ جَدَلًا وَاسِـعًا في الوَسَـطِ العِلْميِّ والعالَمِ الإِسْلاميِّ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَهُ، وَمَدَحَهُ، وَعَمِلَ بِه، وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَضَهُ، وَانْتَقَدَهُ، وَكَفَّرَهُ، وَمِـن ضِمْنِ هَؤُلَاءِ العُلَماءِ، عُلَماءُ مَدينَةِ الحِلَّةِ الَّتي كَانَتْ في عَصْرِها الذَّهَبيِّ زاخِرَةً بِالعِلْمِ وَكِبارِ العُلَماءِ ، وَمَحَطَّ رِحالِ طَلَبَةِ العِلْمِ، لِهَذَا السَّبَبِ ارْتَأَيْنَا أَنْ نَخوضَ غِمارَ هَذَا البَحْثِ لِنَتَعَرَّفَ إِلى آرَاءِ عُلَماءِ الحِلَّةِ في هَذَا العِلْمِ، وَخَاصَّةً إِنَّ الحِلَّةَ كَانَتْ تُعَدُّ

إِحْـدَى المُدُنِ الَّتِي احْتَلَّتْ مَكانَةً محْوَرِيَّةً وَاسْـتِثْنائِيَّةً فِي تَارِيخِ التَّشَـيُّعِ، فِي (القَرْنَيْنِ السَّـابِعِ والثَّامِنِ الهِجْرِيَّـيْنِ)، إِذ كَانَتْ المَرْكَزَ الأَبْـرَزَ لِلْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَمُنَافِسَـةً قَوِيَّةً لِلنَّجَفِ الأَشْرَفِ وَكَرْبَلاءَ فِي تِلْكَ الفَتْرَةِ.

وَاكْتَسَـبَ عُلَمَاءُ الحِلَّـةِ مَكَانَتَهُمُ البَارِزَةَ التـي جَعَلَتْهُمْ قَادَةَ الفِكْرِ الشِّـيعِيِّ لِقُـرُونٍ، فَقَـدْ كَانَـتِ المَرْجِعِيَّـةُ بِيَدِهِمْ، وَهُمُ المَسْـؤُولُونَ عَـنْ تَأْصِيـلِ وَتَنْظِيمِ المَذْهَبِ الشِّـيعِيِّ الإِمَامِيِّ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الفُتُورِ النِّسْـبِيِّ، وَالمُؤَسِّسُـونَ لِلْمَدْرَسَةِ الأُصُولِيَّةِ؛ فقد أَدْخَلُوا المَنْطِقَ، وَالفَلْسَـفَةَ، وَعِلْمَ الكَلَامِ كَأَدَوَاتٍ فِي اسْـتِنْبَاطِ الأَحْكَامِ، وَجَمَعُوا بَيْنَ عُلُومِ الفِقْهِ، وَالأُصُولِ، وَالكَلَامِ، وَالفَلْسَـفَةِ، وَأَدْخَلُوا عِلْـمَ العِرْفَانِ لِمَدْرَسَـةِ الحِلَّةِ بَعْدَ تَأَثُّرِهِـمْ بِهِ مِمَّا أَثْرَى المُحْتَوَى العِلْمِيَّ الشِّـيعِيَّ وَجَعَلُـوهُ أَكْثَرَ قُدْرَةً عَلَى المُنَاظَـرَةِ وَالمُحَاجَجَةِ، أَمَّا عَلَى صَعِيـدِ تَصْنِيفِ الكُتُبِ فَلَا تَزَالُ مُؤَلَّفَاتُهُمْ، مِثْلُ شَرَائِعِ الإِسْـلامِ لِلْمُحَقِّقِ، وَ تَذْكِرَةِ الفُقَهَاءِ، وَ قَوَاعِدِ الأَحْـكَامِ لِلْعَلَّامَـةِ، المَرَاجِعَ الأَسَاسِـيَّةَ فِي الحَوْزَاتِ العِلْمِيَّـةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى اسْـتِمْرَارِ سُـلْطَتِهِمُ العِلْمِيَّةِ.

الأَهَمِّيَّةُ وَالأَهْدَافُ: يسـعى هذا البحثُ إِلَى تَسْلِيطِ الضَّوْءِ عَلَى الفَتْرَةِ الانْتِقَالِيَّةِ الَّتِي شَهِدَتْ دَمْجَ المَنْهَجِ البُرْهَانِيِّ (العَقْلِيِّ) بِالمَضَامِينِ الحَدسِيَّةِ (العِرْفَانِيَّةِ)، مِمَّا أَدَّى إِلَى تَحْصِـينِ العِرْفَانِ الإِمَامِـيِّ مِنَ الانْزِلَاقِ إِلَى التَّطَرُّفِ الغُنُـوصِيِّ[1]، وَإِخْرَاجِهِ فِي قَالَبٍ روحيٍّ مُتَوَازِنٍ.

يَهْدُفُ البَحْثُ إِلَى تَحْقِيقِ مَا يَأتي:

١ - تَحْدِيـدُ الإِطَـارِ المَنْهَجِـيِّ الَّـذِي اسـتَعْمَلَهُ عُلَـمَاءُ الحِلَّـةِ فِي تَنَـاوُلِ القَضَايَا العِرْفَانِيَّةِ، وَالكَشْفُ عَنْ أَثَرِهِمْ فِي مَنْهَجِيَّةِ البَحْثِ العِرْفَانِيِّ.

٢- تِبْيَانُ كَيْفَ أَسْهَمَتِ المَدْرَسَةُ الحِلِّيَّةُ فِي تَأْصِيلِ مَفَاهِيمِ العِرْفَانِ الإِمَامِيِّ ضِمْنَ مَصَادِرِهَا الكَلَامِيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ.

٣- الكَشْفُ عَنِ العَلَاقَةِ الجَدَلِيَّةِ بَيْنَ العَقْلَانِيَّةِ الحِلِّيَّةِ وَالذَّوْقِ العِرْفَانِيِّ فِي هَذِهِ الحِقْبَةِ، وَتَأْثِيرِ ذَلِكَ عَلَى مَدَارِسِ الفِكْرِ الشِّيعِيِّ اللَّاحِقَةِ.

الخَصَائِصُ الفِكْرِيَّةُ وَالمَنْهَجِيَّةُ لِمَدْرَسَةِ الحِلَّة

تَمَيَّزَتْ مَدْرَسَةُ الحِلَّةِ بِخَصَائِصَ فَرِيدَةٍ أَحْدَثَتْ تَغْيِيرًا جَذْرِيًّا فِي المَنْهَجِ الشِّيعِيِّ، خَاصَّةً فِي الكَلَامِ وَالفِقْهِ وَالحَدِيثِ وَالعِرْفَانِ، وَمِنْ هَذِهِ الخَصَائِصِ مَا يَلِي:

١- التَّحَرُّرُ مِنَ التَّقْلِيدِ الفِقْهِيِّ: وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى يَدِ ابْنِ إِدْرِيسَ الحِلِّيِّ (ت ٥٩٨هـ)[٢]، حَيْثُ بَدَأَتْ مَدْرَسَةُ الحِلَّةِ بِالخُرُوجِ مِنْ هَيْمَنَةِ آرَاءِ الشَّيْخِ الطُّوسِيِّ (ت ٤٦٠ هـ) فِي الفِقْهِ، مِمَّا أَطْلَقَ رُوحَ النَّقْدِ وَالاجْتِهَادِ.

٢- النَّزْعَةُ العَقْلِيَّةُ وَالفَلْسَفِيَّةُ: شَهِدَ عِلْمُ الكَلَامِ فِي الحِلَّةِ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً بِالِاسْتِعَانَةِ بِالأَدَبِيَّاتِ وَالمَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ وَالفَلْسَفَةِ المَشَّائِيَّةِ.

وَكَانَ الخَوَاجَةُ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ (ت ٦٧٢ هـ) وَالعَلَّامَةُ الحِلِّيُّ (ت ٧٢٦هـ) الأَبْرَزَ فِي دَمْجِ الفَلْسَفَةِ ضِمْنَ النِّظَامِ الكَلَامِيِّ الشِّيعِيِّ.

٣- ظُهُورُ تَيَّارِ العِرْفَانِ: ظَهَرَ تَيَّارٌ عِرْفَانِيٌّ مُؤَثِّرٌ (النَّظَرِيَّةُ وَالسُّلُوكُ)، فَتَأَثَّرَ بِهِ بَعْضُ الأَعْلَامِ الكِبَارِ، حَيْثُ آمَنُوا بِوُجُودِ «مَعْرِفَةٍ أَسْمَى»[٣] إِلَى جَانِبِ المَعْرِفَةِ العَقْلِيَّةِ وَالكَلَامِيَّةِ وَمِنْ أَبْرَزِ المُتَأَثِّرِينَ بِهِ: الخَوَاجَةُ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ (فَكَتَبَ أَوْصَافَ الأَشْرَافِ) وَشَرَحَ الأَنْمَاطَ الأَخِيرَةَ مِنْ كِتَابِ الإِشَارَاتِ وَالتَّنْبِيهَاتِ لِابْنِ سِينَا، وَهِيَ الأَنْمَاطُ المُخَصَّصَةُ لِصِفَاتِ العَارِفِينَ وَمَقَامَاتِهِمْ، وَكَتَبَ السَّيِّدُ ابْنُ طَاوُوسٍ (ت ٦٦٤ هـ)، (إِقْبَالَ الأَعْمَالِ، فَتْحَ الأَبْوَابِ) وَصَنَّفَ ابْنُ فَهْدٍ

الحِلِّيُّ كُتُبًا فِي العِرْفَانِ العَمَلِيِّ (أَسْرَار الصَّلَاة) وَ (عُدَّة الدَّاعِي وَنَجَاح السَّاعِي).

عِلْمُ العِرْفَانِ فِي مَدْرَسَةِ الحِلَّة، نَظْرَةٌ عَامَّةٌ: اهْتَمَّ عَدَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الحِلَّة بِعِلْمِ العِرْفَانِ، وَعدُّوهُ مَرْتَبَةً أَسْمَى مِنَ العُلُومِ العقليَّة كَالكَلَامِ وَالفَلْسَفَة، وَتُكْتَسَبُ عَنْ طَرِيقِ المُجَاهَدَاتِ وَالرِّيَاضَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَلَيْسَ فَقَطْ بِالعَقْلِ وَالنَّظَرِ، فَمَا هُوَ عِلْمُ العِرْفَانِ؟

العرفان في اللغة مشتقّ من «عَرَفَ»، ويُعْنى به المعرفة، يقول ابن منظور: «عرف، العرفان: العلم... عَرَفَه، يَعْرِفُهُ، عِرْفَة وعِرْفاناً وعِرِفَّاناً وَمَعْرِفَةً واعترفه... ورجل عروفٌ: وعَروفة: عارف يعرف الأمور، ولا ينكر أحداً رآه مرة... والعريف والعارف بمعنى عليم وعالم... والجمع عرفاء»[٤].

وَ يُعَرَّفُ العِرْفَانُ (فِي الاصْطِلَاح) بِأَنَّهُ «العلمُ بِاللهِ سُبْحَانَهُ، مِنْ حَيْثُ أَسْمَاؤُهُ وصِفَاتُهُ ومَظَاهِرُهُ وأَحْوَالُ المَبْدَأ والمَعَاد، والعِلْمُ بِحَقَائِقِ العَالَمِ وبِكَيْفِيَّةِ رُجُوعِهَا إِلَى حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ الذَّاتُ الأَحَدِيَّةُ، ومَعْرِفَةُ طَرِيقِ السُّلُوكِ والمُجَاهَدَة، لِتَخْلِيصِ النَّفْسِ عَنْ مَضَايِقِ القُيُودِ الجُزْئِيَّةِ واتِّصَالِهَا إِلَى مَبْدَئِهَا واتِّصَافِهَا بِنَعْتِ الإِطْلَاقِ والكُلِّيَّة»[٥].

وَيَظْهَرُ مِنَ التَّعْرِيفِ المُتَقَدِّمِ أَنَّ العِرْفَانَ يُقَسَّمُ على قِسْمَيْنِ: العِرْفَانَ النَّظَرِيَّ، والعِرْفَانَ العَمَلِيَّ.

أَمَّا العِرْفَانُ النَّظَرِيُّ، فَهُوَ العِلْمُ بِاللهِ تَعَالَى وأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ وتَجَلِّيَاتِه. ويُرَادُ مِنْهُ إِعْطَاءُ رُؤْيَةٍ كَوْنِيَّةٍ عَنِ المَحَاوِرِ الأَسَاسِيَّةِ فِي عَالَمِ الوُجُود، وَهِيَ «الله» و«الإِنْسَانُ» و«العَالَم»..

وَالعِرْفَانُ العَمَلِيُّ عِبَارَةٌ عَنِ العِلْمِ بِطَرِيقِ السَّيرِ والسُّلُوك، فَمِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ، وَإِلَى

أَيـنَ يَنْتَهي، وَمَا هِيَ المَنَازِلُ والمَقَامَاتُ الَّتي يَجِبُ أَنْ يَسْـلُكَهَا العَارِفُ لِلْوُصُولِ إِلَى اللهِ تَعَـالَى، وكَيْفِيَّـةُ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ لِلتَّغَلُّبِ عَلَى مِيُولِهَـا وتَحْرِيرِهَا مِنْ عَلَائِقِهَا، حَتَّى تَسْتَطِيعَ طَيَّ المَرَاحِلِ والجَدَّ في سَيْرِهَا إِلَى اللهِ تَعَالى[٦].

أَمَّا القِسْمُ الأَوَّلُ مِنَ العِرْفَانِ: فَهُوَ يُشْبِهُ عِلْمَ الفَلْسَفَةِ لِجِهَةِ مُحَاوَلَتِهِ تَقْدِيمَ تَفْسِيرٍ لِلْوُجُودِ، يُرَادُ مِنْهُ تَقْدِيمُ رُؤْيَةٍ كَوْنِيَّةٍ عِرْفَانِيَّةٍ يَكُونُ للهِ فِيهَا الأَصَالَةُ الأَسَاسِيَّةُ، وكُلُّ مَا سِـوَى اللهِ مَا هُـوَ إِلَّا مَظْهَرٌ وتَجَلٍّ لِتِلْـكَ الحَقِيقَةِ الوَاحِدَةِ، وَإِذَا كَانَ الفَيْلَسُـوفُ يُحَاوِلُ تَقْدِيمَ رُؤْيَةٍ تَرْتَكِزُ عَلَى مِحْوَرِيَّةِ اللهِ كَوَاجِبٍ لِلْوُجُودِ، وتَكْوِينِ صُورَةٍ جَامِعَةٍ عَـنِ اللهِ وعَلَاقَتِـهِ بِالكَوْنِ، فَقَدِ اسْـتَعْمَلَ الفَيْلَسُـوفُ لِذَلِكَ الدَّلِيـلَ والبُرْهَانَ، أَمَّا العَـارِفُ فِي مُحَاوَلَتِهِ تَقْدِيمَ رُؤْيَتِـهِ الكَوْنِيَّةِ هَذِهِ، فَهُوَ غَيْرُ مُهْتَـمٍّ بِالعَقْلِ والفَهْمِ، بَلِ العَارِفُ يُقَدِّمُ رُؤْيَتَهُ لِيَصِلَ إِلَى كُنْهِ وحَقِيقَةِ الوُجُودِ[٧].

نَقْدُ العِرْفَانِ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ عُلَمَاءِ المَذْهَبِ الإِمَامِيِّ: تُوجَدُ العَدِيدُ مِنَ الأَصْوَاتِ النَّقْدِيَّةِ دَاخِلَ المَذْهَبِ الشِّيعِيِّ الإِمَامِيِّ الَّتِي وَجَّهَتْ انْتِقَادَاتٍ حَادَّةً لِلرُّؤْيَةِ العِرْفَانِيَّةِ الَّتِـي تَتَبَنَّى إِهْمَالَ العَقْلِ وَالفَهْمِ وَالاعْتِمَادَ كُلِّيًّا عَلَى الكَشْـفِ وَالذَّوْقِ لِلْوُصُولِ إِلَى حَقِيقَـةِ الوُجُـودِ، هَذَا النَّقْدُ لَمْ يَنْبَعْ فَقَـطْ مِنَ الفُقَهَاءِ وَالأُصُولِيِّينَ، بَلْ شَـمِلَ فِئَاتٍ مِنَ المُحَدِّثِينَ وَالمُفَكِّرِينَ الَّذِينَ رَأَوْا فِي المَنْهَجِ العِرْفَانِيِّ المُتَطَرِّفِ خُرُوجًا عَلَى أُصُولِ المَذْهَبِ.

مَصَادِرُ النَّقْدِ الشِّـيعِيِّ الإِمَامِيِّ لِلْعِرْفَانِ: يَنْقَسِـمُ النَّقْدُ المُوَجَّهُ لِلْمَنْهَجِ العِرْفَانِيِّ إِلَى ثَلَاثِ مَدَارِسَ رَئِيسَةٍ:

١ – مَدْرَسَـةُ المُحَدِّثِينَ (الأَخْبَارِيَّةُ): تُعَدُّ هَذِهِ المَدْرَسَـةُ هِـيَ الأَكْثَرَ حِدَّةً فِي نَقْدِ المَنْهَجِ العِرْفَانِيِّ الَّذِي يعتبر العَقْلَ وَالظَّاهِرَ مقدِّمة لعلم العرفان، وَتَتَّسِمُ بِالآتِي:

أ- اَلتَّرْكِيزُ عَلى النَّص: يَرَى المُحَدِّثُونَ أَنَّ سَبِيلَ المَعْرِفَةِ الوَحِيدَ هُوَ النَّصُّ القُرْآنِيُّ وَالرِّوَائِيُّ (أَخْبَارُ الأَئِمَّة).

ب- نَقْدُ الكَشْفِ وَالذَّوْق: يَرْفُضُونَ تَمَامًا الاِعْتِمَادَ عَلَى الكَشْفِ البَاطِنِيِّ وَالذَّوْقِ الصُّوفِيِّ كَطَرِيقٍ لِلْمَعْرِفَة، وَيعدُّونَهُ مَدْخَلًا لِلشَّيْطَانِ أَوِ الأَوْهَامِ الفَرْدِيَّةِ غَيْرِ المَوْثُوقَة، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى مُخَالَفَةِ صَرِيحِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّة.

أَبْرَزُ رُمُوزِ النَّقْد: اَلشَّيْخُ مُحَمَّدُ أَمِين الأَسْتَرَابَادِيُّ (ت. ١٠٣٣ هـ): مُؤَسِّسُ الحَرَكَةِ الأَخْبَارِيَّة، انْتَقَدَ بِشِدَّةٍ المَنْهَجَ العَقْلِيَّ عُمُومًا، وَبِالأَخَصِّ المَنْهَجَ الذَّوْقِيَّ العِرْفَانِيَّ، وَدَعَا إِلَى التَّمَسُّكِ بِحَرْفِيَّةِ النَّصِّ.

مَدْرَسَةُ الفُقَهَاءِ وَالأُصُولِيِّينَ: يَرَى فُقَهَاءُ وَأُصُولِيُّو الشِّيعَةِ أَنَّ إِهْمَالَ العَقْلِ يُخَالِفُ صَرِيحَ الأُصُولِ المُعْتَمَدَةِ فِي المَذْهَب، وَأَبْرَزُ نِقَاطِ نَقْدِهِمْ:

١- العَقْلَانِيَّةُ الإِمَامِيَّة: المَذْهَبُ الإِمَامِيُّ يُعْطِي لِلْعَقْلِ دَوْرًا رَئِيسًا كَـ «حُجَّةٍ بَاطِنِيَّة» (كَمَا وَرَدَ فِي الحَدِيث: «مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الجِنَانُ»)، وَفِي اسْتِنْبَاطِ الأَحْكَام (بِمَا يُعْرَفُ بِـ «المُلَازَمَةِ العَقْلِيَّة»).

٢- خَطَرُ فِكْرَةِ "الوُصُولِ إِلَى الكُنْه": يَنْتَقِدُونَ نظريَّة العَارِفِين حول وحدة الوجود، وأَنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ تُخَالِفُ مَبْدَأَ العَقِيدَةِ الثَّابِتَةِ فِي عِلْمِ الكَلَامِ الإِمَامِيِّ.

أَبْرَزُ رُمُوزِ النَّقْد: اَلشَّيْخُ مُحَمَّدُ حَسَن النَّجَفِيُّ (صَاحِبُ الجَوَاهِر، ت. ١٢٦٦هـ): فِي مُؤَلَّفَاتِهِ الفِقْهِيَّة، يُرَكِّزُ عَلَى ضَرُورَةِ الاِسْتِدْلَالِ العَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ المَنْطِقِيِّ، وَيَنْتَقِدُ بِشِدَّةٍ كُلَّ مَا يُخَالِفُ الظَّاهِرَ المَوْثُوقَ بِه.

اعتراضات المَدْرَسَةِ الكَلَامِيَّة: يعترضُ المُتَكَلِّمُونَ الشِّيعَةُ الفِكْرَةِ العِرْفَانِيَّة بِنَقْدٍ مَنْطِقِيٍّ وَعَقْلِيٍّ من خلال أمرين:

١ – نَقْدُ التَّنَاقُـض: يَنْتَقِدُونَ التَّنَاقُضَاتِ الظَّاهِرَةَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَقْوَالِ العِرْفَانِيَّةِ (مِثْلَ بَعْضِ تَفْسِيرَاتِ وَحْدَةِ الوُجُودِ) الَّتِي لَا يُمْكِنُ تَبْرِيرُهَا بِالمَنْطِقِ العَقْلِيِّ السَّلِيمِ.

٢ – الحَاجَةُ إِلَى البُرْهَانِ: يُصِرُّونَ عَلَى أَنَّ مَسَائِلَ العَقِيدَةِ يَجِبُ أَنْ تُثْبَتَ بِالبُرْهَانِ وَالمَنْطِقِ (كَمَا فِي مَنْهَجِ الخواجة الطُّوسِيِّ وَالعَلَّامَةِ الحِلِّيِّ)، وَلَيْسَ بِالحَالَةِ النَّفْسِـيَّةِ أَوِ التَّجْرِبَةِ الشَّخْصِيَّةِ (الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الكَشْفِ العِرْفَانِيِّ).

وعليـه الفِكْرَةُ الَّتِي تَقُولُ إِنَّ العَـارِفَ غَيْرُ مُهْتَمٍّ بِالعَقْلِ وَيُقَدِّمُ رُؤْيَتَهُ لِلْوُصُولِ إِلَى كُنْـهِ الوُجُودِ هِيَ فِكْـرَةٌ مَرْفُوضَةٌ مِـنَ الغَالِبِيَّةِ العُظْمَى مِـنَ المُتَكَلِّمِينَ وَالفُقَهَاءِ وَالمُحَدِّثِـينَ فِي المَذْهَبِ الشِّـيعِيِّ الإِمَامِيِّ، الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ الطَّرِيـقَ الوَحِيدَ لِلْمَعْرِفَةِ الصَّحِيحَةِ هُوَ عَبْرَ النَّصِّ (الوَحْيِ) وَالعَقْلِ (البُرْهَانِ)

أَمَّا القِسْـمُ الثَّانِي مِنَ العِرْفَانِ: أَيِ العِرْفَانِ العَمَلِيِّ، فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ ذَاكَ الجَانِبِ الَّذِي يُبَيِّنُ العَلَاقَاتِ والوَاجِبَاتِ المَفْرُوضَةَ عَلَى الإِنْسَـانِ مَعَ نَفْسِـهِ ومَعَ العَالَمِ ومَعَ اللهِ، فَيُوَضِّـحُ فِيهِ لِلسَّـالِكِ، مِنْ أَيْنَ يَجِبُ أَنْ يَبْـدَأَ، وإِلَى أَيْنَ يَجِبُ أَنْ يَنْتَهِيَ، وكَيْفَ يَسْـلُكُ لِيَصِلَ إِلَى تِلْكَ الحَقِيقَةِ الوَاحِدَةِ، ويَتَطَلَّبُ الأَمْرُ تَوْضِيحَ المَقَامَاتِ والمَنَازِلِ الَّتِي يَجِبُ قَطْعُهَا لِلْوُصُولِ[٨].

عَلَاقَتُهُ بِالعُلُومِ الأُخْرَى: كَانَ عُلَمَاءُ الحِلَّةِ الأَوَائِلُ يَجْمَعُونَ بَيْنَ العُلُومِ المُخْتَلِفَةِ (فِقْـهٍ، وأُصُولٍ، وكَلَامٍ، وفَلْسَـفَةٍ)، وَبَعْضُهُمْ أَشَـارَ إِلَى العِرْفَانِ كَأَعْلَى مُسْـتَوَيَاتِ المَعْرِفَةِ الدِّينِيَّةِ، كَالخَوَاجَةِ نَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسِيِّ كَمَا أَسْلَفْنَا.

دَلَالَاتُ الاهْتِمَامِ بِالعِرْفَانِ فِي مَدْرَسَةِ الحِلّة

ظَهَرَ الاهْتِمَامُ بِعِلْمِ العِرْفَانِ عِنْدَ بَعْضِ عُلَمَاءِ الحِلَّةِ وَذَلِكَ لِعِدَّةِ دَلَالَاتٍ مِنْهَا:

١- شُمُولِيَّةُ الحَرَكَةِ العِلْمِيَّةِ: لَمْ تَقْتَصِرِ الحَوْزَةُ العِلْمِيَّةُ فِي الحِلَّةِ عَلَى الفِقْهِ وَالأُصُولِ وَالكَلَامِ، بَلْ شَمِلَتْ أَيْضًا الاهْتِمَامَ بِالجَوَانِبِ البَاطِنِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ العُلْيَا مُتَمَثِّلَةً بِالعِرْفَانِ.

٢- التَّأَثُّرُ بِالمَدَارِسِ المَعْرِفِيَّةِ: يُشِيرُ تَدَاوُلُ مُصْطَلَحِ العِرْفَانِ وَمَفَاهِيمِهِ إِلَى وُجُودِ تَأَثُّرٍ بِالحَرَكَةِ المَعْرِفِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ الأَشْمَلِ الَّتِي كَانَتْ تَشْهَدُ ازْدِهَارًا فِي الفَلْسَفَةِ وَالكَلَامِ.

٣- العِرْفَانُ العَمَلِيُّ: يَتَجَلَّى الاهْتِمَامُ بِالعِرْفَانِ العَمَلِيِّ فِي تَأْلِيفِ كُتُبٍ حَوْلَ الأَدْعِيَةِ، وَالمُجَاهَدَةِ، وَالسُّلُوكِ، مِثْلِ كِتَابِ ابْنِ فَهْدٍ الحِلِّيِّ (فِي أَسْرَارِ الصَّلَاةِ)، وَالَّذِي يَهْدُفُ إِلَى تَحْقِيقِ مَرْتَبَةٍ أَسْمَى مِنَ المَعْرِفَةِ.

المبحث الثّاني: العَلاقَةُ بَيْنَ عِلْمِ العِرْفانِ وَعِلْمِ الكَلامِ في مَدْرَسَةِ الحِلّة

تَمَيَّزَت العَلاقَةُ بَيْنَ عِلْمِ العِرْفانِ وَعِلْمِ الكَلامِ في مَدْرَسَةِ الحِلَّة (في القَرْنَيْنِ السَّابِعِ وَالثَّامِنِ الهِجْرِيَّيْنِ بِشَكْلٍ خاصٍّ) بِكَوْنِها عَلاقَةَ تَأَثُّرٍ وَتَداخُلٍ إِلَى حَدٍّ كَبيرٍ، وَخُصُوصًا بَعْدَ دُخُولِ الفَلْسَفَةِ المَشّائِيَّةِ (المَدْرَسِيَّةِ) بِقُوَّةٍ إِلَى الحَوْزَةِ الحِلِّيَّةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وُجُودِ تَيّارٍ كَلامِيٍّ تَقْلِيدِيٍّ كَانَ يَنْتَقِدُ الأَفْكارَ العِرْفانِيَّةَ -سَوْفَ نَتَطَرَّقُ لَهُ لاحِقًا-، إِلّا أَنَّ تَيّارًا آخَرَ مِنْ كِبارِ عُلَماءِ المَدْرَسَةِ قَدْ تَأَثَّرَ بِالاتِّجاهاتِ العِرْفانِيَّةِ، مِمّا أَدّى إِلَى ظُهُورِ النَّظَرِيَّةِ العِرْفانِيَّةِ الكَلامِيَّةِ في مَدْرَسَةِ الحِلَّة.

جَوانِبُ التَّأَثُّرِ وَالتَّداخُلِ: يُمْكِنُ تَلْخِيصُ العَلاقَةِ بَيْنَ العِلْمَيْنِ في مَدْرَسَةِ الحِلَّةِ في النِّقاطِ الآتية:

أ- تَأَثُّرُ بَعْضِ الأَعْلامِ البارِزِينَ: تَأَثَّرَ بَعْضُ أَهَمِّ شَخْصِيّاتِ أساتذة بعض علماء الحِلَّةِ بِالعُرْفانِ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ أستاذ العلّامة الحلّي الخَواجَةُ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ (ت ٦٧٢ هـ): الَّذي يُعَدُّ رائِدَ إِدْخالِ المَنْهَجِ الفَلْسَفِيِّ إِلَى الكَلامِ الشِّيعِيِّ، رَغْمَ أَنَّ كُتُبَهُ الكَلامِيَّةَ كانَتْ عَقْلِيَّةً، إِلّا أَنَّهُ كانَ يَعْتَقِدُ بِوُجُودِ «نَوْعٍ أَسْمَى مِنَ المَعْرِفَةِ وَهِيَ المَعْرِفَةُ العِرْفانِيَّةُ» (٩).

وَأَيْضًا الشَّيْخُ مَيْثَمُ البَحْرانِيُّ (ت ٦٧٩ هـ) وهو أيضًا أستاذ العلّامة الحلّي: الَّذي تَأَثَّرَ بِالعِرْفانِ إِلَى جانِبِ تَأَثُّرِهِ بِالفَلْسَفَةِ المَشّائِيَّةِ.

أهميَّة التّلمذة: تُعد دراسة العلّامة الحلّي على يد ابن ميثم البحراني نقطة تحوّل مهمَّة في تاريخ الفكر الشّيعيّ، إذ أسهمت في نقل المنهج العقليّ (علم الكلام والفلسفة) الذي تميزت به مدرسة البحرين إلى المدرسة الحلّيَّة التي ركزت على الفقه والأصول.

ب- تأثّر علماء الحلّة بعلم العرفان: كالسَّيِّد ابْن طَاوُوس (ت ٦٦٤ هـ) الَّذي كَانَ مِنْ أَبْرَز مُمَثِّلِي التَّيَّار الكَلَامِيِّ الحَدِيثِيِّ، وَالَّذِي ظَهَرَتْ فِي آثَارِهِ بَعْضُ الأَفْكَارِ العِرْفَانِيَّة [١٠]، وكذلك العَلَّامَةُ ابْنُ فَهْدٍ الحِلِّيُّ (ت ٨٤١ هـ) الفَقِيهُ العَارِفُ الزَّاهِد، حيثُ اشْتُهِرَ بِكَوْنِهِ مِنَ العُلَمَاءِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الفِقْهِ الاسْتِدْلَالِيِّ العَمِيقِ وَالزُّهْدِ وَالسُّلُوكِ العِرْفَانِيِّ، فَكَانَ قُطْبًا عِلْمِيًّا وَرُوحِيًّا فِي عَصرِه [١١]، وكذلك العلّامة الحلّي، إذْ كان مَوْقِفُهُ مِنْ «طَرِيقِ العِرْفَانِ وَمُرَاقَبَةِ النَّفْسِ» (الجَانِبِ العَمَلِيِّ أَوِ السُّلُوكِيِّ) مقبُولًا عنده، حَيْثُ لَمْ يُنْكِرِ المَنْهَجَ السُّلُوكِيَّ فِي أَصْلِهِ، لَكِنَّهُ كَانَ يُشَدِّدُ عَلَى الانْضِبَاطِ بِالشَّرْعِ [١٢]، كما سوف نبيّنه لاحقًا، كذلك السَّيّد حيدر الآملي الحلّي (ت. بعد ٧٨٧ هـ) تأثر تأثرًا عميقًا بعلم العرفان، خصوصًا العرفان النظري لكن تأثيره لم يكن مجرد تبنٍّ، بل كان عملية دمج وتشييع لهذا الفكر ليصبح جزءًا أصيلًا من المنظومة العقائديَّة الشّيعيَّة [١٣]، وهذا ما سوف نبيّنه في البحث من خلال آرائهم التي طرحوها في مصنَّفاتهم.

خُلَاصَةُ العَلَاقَة: إِنَّ مَدْرَسَةَ الحِلَّةِ الكَلَامِيَّةَ، ولا سيَّما فِي المَرَاحِلِ المُتَأَخِّرَةِ، مَثَّلَت مِنْطَقَةَ عُبُورٍ فِكْرِيٍّ حَيْثُ تَزَاوَجَتْ فِيهَا مَنَاهِجُ مُخْتَلِفَةٌ، فَتَحَوَّلَ عِلْمُ الكَلَامِ فِيهَا إِلَى «كَلَامٍ فَلْسَفِيٍّ» مُتَأَثِّرًا بِالفَلْسَفَةِ المَشَّائِيَّةِ بَعْدَ الخَوَاجَةِ الطُّوسِيِّ، وَبِدَوْرِهَا سَمَحَتْ هَذِهِ النَّقْلَةُ بِدُخُولِ التَّأْثِيرَاتِ العِرْفَانِيَّةِ، التي اعْتَرَفَ كِبَارُ المُتَكَلِّمِينَ فِيهَا بِضَرُورَةِ وَأَهَمِّيَّةِ المَعْرِفَةِ العِرْفَانِيَّةِ (الشُّهُودِيَّةِ) بِجَانِبِ المَعْرِفَةِ العَقْلِيَّةِ (النَّظَرِيَّةِ).

تَدَاخُلُ مَنَاهِجِ المَعْرِفَةِ فِي مَدْرَسَةِ الحِلَّةِ وَمِنْ ضِمْنِهَا:

١- عِلْمُ الكَلَامِ (المَنْهَجُ العَقْلِيُّ): يَعْتَمِدُ عَلَى الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ وَالحِجَاجِ وَالجَدَلِ لِإِثْبَاتِ العَقَائِدِ، وَقَدْ تَدَاخَلَ فِي مَدْرَسَةِ الحِلَّةِ مَعَ المَبَانِي الفَلْسَفِيَّةِ.

٢- عِلْمُ العِرْفَانِ (المَنْهَجُ الشُّهُودِيُّ): يَعْتَمِدُ عَلَى الكَشْفِ وَالشُّهُودِ وَالسَّيْرِ

وَالسُّلُوكِ (تَزْكِيَةِ النَّفْسِ) كَوَسِيلَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى حَقَائِقِ الأَشْيَاءِ وَ«المَعْرِفَةِ الأَسْمَى» بِاللهِ[١٤].

٣- التَّوْفِيقُ الجُزْئِيُّ: بَعْضُ عُلَمَاءِ الكَلَامِ المُتَأَثِّرِينَ بِالعِرْفَانِ جَمَعُوا بَيْنَ المَنْهَجَيْنِ، حَيْثُ اسْتَمَرُّوا فِي اسْتِخْدَامِ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ الكَلَامِيَّةِ فِي كُتُبِهِمْ، لَكِنَّهُمُ اعْتَرَفُوا بِأَفْضَلِيَّةِ الطَّرِيقِ العِرْفَانِيِّ كَأَعْلَى مَرَاتِبِ المَعْرِفَةِ[١٥].

عِلْمُ العِرْفَانِ بَيْنَ القَبُولِ وَالرَّفْضِ: كَانَتْ مَكَانَةُ العِرْفَانِ فِي مَدْرَسَةِ الحِلَّةِ مَحَلَّ نِقَاشٍ وَتَفَاوُتٍ فِي القَبُولِ فَوُجِدَ تَيَّارٌ نَاقِدٌ -مع وجود تأثُّر مِنْ كِبَارِ الأَعْلَامِ-، وَهُوَ التَّيَّارُ الكَلَامِيُّ الَّذِي كَانَ يُوَجِّهُ سِهَامَ النَّقْدِ إِلَى الأَفْكَارِ العِرْفَانِيَّةِ وَالصُّوفِيَّةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ العَلَاقَةَ كَانَتْ جَدَلِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ إِجْمَاعًا كَامِلًا، وَمِنْ ضِمْنِ هَذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ النَّاقِدَةِ العَلَّامَةُ الحَسَنُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ المُطَهَّرِ الحِلِّيُّ (ت ٧٢٦ هـ)، الذي اتَّسَمَ رأْيُهُ تُجَاهَ عِلْمِ العِرْفَانِ، وَخَاصَّةً الجَانِبَ النَّظَرِيَّ مِنْهُ المُتَعَلِّقَ بِعَقَائِدِ الحُلُولِ وَالاتِّحَادِ وَوَحْدَةِ الوُجُودِ، بِالرَّفْضِ الشَّدِيدِ وَالتَّحْذِيرِ القَاطِعِ، عَادًّا هَذِهِ الأَقْوَالَ كُفْرًا وَإِلْحَادًا يَتَعَارَضُ مَعَ الأُصُولِ العَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ.

مَوْقِفُ العَلَّامَةِ الحِلِّيِّ مِنْ عَقَائِدِ العِرْفَانِ النَّظَرِيِّ: كَانَ العَلَّامَةُ الحِلِّيُّ مِنْ أَبْرَزِ المُتَكَلِّمِينَ وَالفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ تَبَنَّوْا مَنْهَجًا عَقْلِيًّا صَارِمًا، وَأَشَارَ فِي مُؤَلَّفَاتِهِ بِوُضُوحٍ إِلَى بُطْلَانِ عَقَائِدِ الصُّوفِيَّةِ الَّتِي تُخَالِفُ التَّوْحِيدَ الخَالِصَ، مِثْلَ:

١- وَحْدَةِ الوُجُودِ وَالحُلُولِ وَالاتِّحَادِ: صَرَّحَ العَلَّامَةُ الحِلِّيُّ بِأَنَّ القَوْلَ بِأَنَّ «اللهَ تَعَالَى يَتَّحِدُ مَعَ أَبْدَانِ العَارِفِينَ» أَوْ «أَنَّهُ تَعَالَى نَفْسُ الوُجُودِ وَكُلُّ مَوْجُودٍ هُوَ اللهُ تَعَالَى «هُوَ» عَيْنُ الكُفْرِ وَالإِلْحَادِ، وَدَلِيلُهُ العَقْلِيُّ عَلَى ذَلِكَ هو أَنَّ الضَّرُورَةَ العَقْلِيَّةَ تَقْضِي بِبُطْلَانِ الاتِّحَادِ، إِذْ «لَا يُعْقَلُ صَيْرُورَةُ الشَّيْئَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا»[١٦].

٢- الزَّنْدَقَةُ وَالإِلْحَادُ: وَصَفَ العَلَّامَةُ الحِلِّيُّ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ، مِثْلَ (نَهْجِ الحَقِّ

وَكَشْـفِ الصِّدْقِ)[١٧]، مَشَـايِخَ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي هَذِهِ الأَقْوَالِ بِأَنَّهُمْ يَكَادُونَ يُزَاحِمُونَ مَقَامَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ هَذِهِ المَقَالَاتِ تُسَبِّبُ «الزَّنْدَقَةَ وَالإِلحَادَ» وَظَاهِرَةَ الفَسَادِ.

رَأْيُهُ فِي التَّصَوُّفِ (العِرْفَانِ العَمَلِيِّ): عَلَى الرَّغْمِ مِنْ نَقْدِهِ القَاطِعِ لِعَقَائِدِ العِرْفَانِ النَّظَـرِيِّ، إِلَّا أَنَّ مَوْقِفَـهُ مِـنَ «طَرِيقِ العِرْفَـانِ وَمُرَاقَبَةِ النَّفْسِ» (الجَانِـبِ العَمَلِيِّ أَوِ السُّلُوكِيِّ) كَانَ أَكْثَرَ قَبُولًا، حَيْثُ لَمْ يُنْكِرِ المَنْهَجَ السُّلُوكِيَّ فِي أَصْلِهِ، لَكِنَّهُ كَانَ يُشَدِّدُ عَـلَى الانْضِبَاطِ بِالـشَّرْعِ، وَنَقْدِ الانْحِرَافَـاتِ، فقد كَانَ يُحَذِّرُ مِنْ مَشَـايِخِ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ يَقَعُونَ فِي الغُرُورِ، أَوْ يَسْـتَخْدِمُونَ العِرْفَانَ لِتَحْقِيقِ الذَّاتِ وَالشُّهْرَةِ وَكَسْبِ المَالِ، مُشِـيرًا إِلَى أَنَّ طَرِيقَ العِرْفَانِ «حَقٌّ» فِي أَصْلِهِ، لَكِنَّ التَّطْبِيقَ وَالتَّجَاوُزَاتِ مِنْ بَعْضِ المُدَّعِينَ هُوَ المُشْـكِلُ، وَنَقَلَ العَلَّامَةُ الحِلِّيُّ فِي كِتَابِهِ (مِنْهَاجِ الكَرَامَةِ)[١٨] قِصَّةً تَدُلُّ عَلَى تَوْبَةِ بِشْرٍ الحَافِي، وَرُجُوعِهِ إِلَى اللهِ عَلَى يَدِ الإِمَامِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام، مِمَّا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ العِبْرَةَ هِيَ بِتَصْحِيحِ المَسَارِ وَالالتِزَامِ بِالشَّرْعِ، وَهَذَا هُوَ العِرْفَانُ العَمَلِيُّ الصَّحِيحُ عِنْدَهُ.

بِاخْتِصَـارٍ، يُمْكِنُ تَلْخِيـصُ مَوْقِفِهِ بِأَنَّهُ يَرْفُضُ بِشِـدَّةٍ أَيَّ عَقَائِدَ عِرْفَانِيَّةٍ تُؤَدِّي إِلَى الحُلُـولِ وَالاتِّحَادِ وَوَحْـدَةِ الوُجُودِ، وَيعدُّها خُرُوجًا عَنْ أَسَـاسِ التَّوْحِيدِ، بَيْنَمَا يَرَى أَنَّ المَنْهَجَ الرُّوحِيَّ وَالسُّلُوكِيَّ (مُرَاقَبَةَ النَّفْسِ وَالزُّهْدَ) هُوَ أَسَاسٌ إِسْلَامِيٌّ إِذَا انْضَبَطَ بِضَوَابِطِ الشَّرِيعَةِ وَالعَقْلِ.

آرَاءُ أساتذة العلَّامة الحلّي في عِلْمِ العِرْفَانِ:

١ - الخَوَاجَةُ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسيُّ:

العَـالِمُ الفَلَكِيُّ وَالرِّيَاضِيُّ وَالفَيْلَسُـوفُ وَالمُتَكَلِّمُ الشَّـهِيرُ، أَبُو جَعْفَـرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ الطُّوسيُّ، المَعْرُوفُ بِـ نَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسيِّ (ت ٦٧٢ هـ) وَيُعْرَفُ أَيْضًا بِالخَوَاجَةِ نَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسيِّ، أَوِ المُحَقِّقِ الطُّوسيِّ.

كَانَ الطُّوسيُّ مَوْسُـوعَةً عِلْمِيَّةً شَمِلَتْ عُلُومَ عَصْرِهِ، وَلَهُ دَوْرٌ مِحْوَرِيٌّ فِي حِفْظِ وَنَشْرِ العُلُومِ خِلَالَ فَتْرَةِ الغَزْوِ المَغُولِيِّ[١٩].

أثـره على مَدْرَسَـةِ الحِلَّة: فِي سِـيَاقِ مَدْرَسَـةِ الحِلَّةِ، يُمَثِّلُ الخَوَاجَـةُ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّـوسيُّ الرَّائِـدَ الأَوَّلَ الَّذِي عَزَّزَ مَكَانَةَ الفَلْسَـفَةِ وَالمَنْهَجِ العَقْـلِيِّ فِي عِلْمِ الكَلَامِ، وَلَكِنَّـهُ فِي الوَقْـتِ نَفْسِـهِ، تَرَكَ البَـابَ مَفْتُوحًا بَلْ وَأَشَـادَ بِالمَنْهَجِ العِرْفَـانِيِّ كَـأَعْلَى مَرَاتِـبِ التَّحْقِيقِ، مِمَّا مَهَّدَ الطَّرِيقَ لِعُلَمَاءَ لَاحِقِينَ فِي الحِلَّةِ لِدَمْجِ هَذِهِ العُلُومِ، حَيْثُ كَانَ دَوْرُهُ الرَّئِيسِ هُوَ الجَمْعَ بَيْنَ الحِكْمَةِ (الفَلْسَـفَةِ) وَعِلْمِ الكَلَامِ وَالعِرْفَانِ، وَهِيَ رُؤْيَـةٌ اتَّضَحَتْ أَكْثَرَ لَاحِقًا فِي فِكْرِ عُلَمَاءَ كِبَارٍ مِثْلِ صَدْرِ المُتَأَلِّهِينَ الشِّـيرَازِيِّ، الَّذِي بَنَى مَدْرَسَتَهُ عَلَى هَذَا الأَسَاسِ المُتَكَامِلِ.

كَـمَا يُشِـيرُ الفِكْـرُ الفَلْسَـفِيُّ وَالكَلَامِـيُّ لِـلْخَوَاجَةِ نَصِـيرِ الدِّينِ الطُّـوسيِّ إِلَى اعْتِرَافٍ وَاضِحٍ بِقِيمَةِ عِلْمِ العِرْفَانِ (التَّصَوُّفِ) وَدَوْرِهِ فِي تَحْقِيقِ المَعْرِفَةِ التَّامَّةِ، عادًّا إِيَّاهُ مَرْتَبَةً عُلْيَا تُكَمِّلُ مَا لَا يَسْتَطِيعُ العَقْلُ إِدْرَاكَهُ بِمُفْرَدِهِ.

وَيُعَدُّ الخَوَاجَةُ الطُّوسيُّ أَحَدَ الأَعْلَامِ الَّذِينَ قَامُوا بِـالمَزْجِ بَيْنَ الفَلْسَفَةِ وَالكَلَامِ فِي المَدْرَسَـةِ الشِّـيعِيَّةِ، وَتَجَسَّـدَ رَأْيُـهُ فِي العِرْفَانِ بِشَـكْلٍ أَسَـاسِيٍّ مِنْ خِـلَالِ شَرْحِهِ

لِكِتَابِ ابْنِ سِينَا «الإِشَارَاتِ وَالتَّنْبِيهَاتِ»، وَتَحْدِيدًا فِي فُصُولِهِ الأَخِيرَةِ المُخَصَّصَةِ لِلْعَارِفِينَ.

مَنْهَجُ الخَوَاجَةِ نَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسِيِّ فِي العِرْفَانِ: يُمْكِنُ تَلْخِيصُ آرَاءِ الخَوَاجَةِ الطُّوسِيِّ حَوْلَ العِرْفَانِ فِي النِّقَاطِ التَّالِيَةِ:

١- العِرْفَانُ هُوَ كَمَالُ المَعْرِفَةِ: يَنْظُرُ الخَوَاجَةُ نصير الدين الطُّوسِيُّ إِلَى العِرْفَانِ لَيْسَ بِوَصْفِهِ بَدِيلًا عَنِ الفَلْسَفَةِ أَوِ الكَلَامِ، بَلْ كَطَوْرٍ وَرَاءَ طَوْرِ العَقْلِ، وَهُوَ المَسَارُ الَّذِي لَا يَكْمُلُ بِهِ الإِنْسَانُ إِلَّا بِالِانْتِقَالِ مِنْ مُجَرَّدِ التَّفْكِيرِ إِلَى الذَّوْقِ وَالشُّهُودِ البَاطِنِيِّ، فَعِلْمُ الكَلَامِ يُثْبِتُ العَقَائِدَ بِالدَّلِيلِ العَقْلِيِّ (البُرْهَانِ)، أَمَّا عِلْمُ العِرْفَانِ يُحَقِّقُ الإِدْرَاكَ الكَامِلَ وَاليَقِينَ التَّامَّ بِهَذِهِ العَقَائِدِ مِنْ خِلَالِ الِاتِّصَالِ الرُّوحِيِّ بِاللهِ، وَالِانْقِطَاعِ عَنِ نزعات النَّفْسِ.

٢- شَرْحُ «الأَنْمَاطِ التِّسْعَةِ» لِابْنِ سِينَا: أَبْرَزُ مَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ الخواجة نصير الدين الطُّوسِيِّ لِلْعِرْفَانِ هُوَ شَرْحُهُ المُسْتَفِيضُ لِلْأَنْمَاطِ الأَخِيرَةِ مِنْ كِتَابِ «الإِشَارَاتِ وَالتَّنْبِيهَاتِ» لِابْنِ سِينَا، وَهِيَ الأَنْمَاطُ المُخَصَّصَةُ لِصِفَاتِ العَارِفِينَ وَمَقَامَاتِهِمْ، وَفِي هَذِهِ الشُّرُوحِ يُقَدِّمُ الشَّيْخُ الطُّوسِيُّ وَصْفًا دَقِيقًا لِحَالَةِ العَارِفِ وَسَيْرِهِ الرُّوحِيِّ (السُّلُوكِ)، مُؤَكِّدًا أَنَّ بُلُوغَ هَذِهِ المَقَامَاتِ يَتَطَلَّبُ مُجَاهَدَةً وَرِزْقًا إِلَهِيًّا، وَلَا يَتِمُّ بِالتَّحْصِيلِ العَقْلِيِّ وَحْدَهُ[٢٠].

٣- وَصْفُ حَالِ العَارِفِ: نَقَلَ الشَّيْخُ الطُّوسِيُّ فِي شَرْحِ الإِشَارَاتِ كَلَامًا عَمِيقًا فِي وَصْفِ العَارِفِ وَمَا يَبْلُغُهُ مِنْ وَحْدَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ، حَيْثُ يَقُولُ: (إِنَّ العَارِفَ إِذَا انْقَطَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَاتَّصَلَ بِالحَقِّ، رَأَى كُلَّ قُدْرَةٍ مُسْتَغْرِقَةً فِي قُدْرَتِهِ المُتَعَلِّقَةِ بِجَمِيعِ المَقْدُورَاتِ، وَكُلَّ عِلْمٍ مُسْتَغْرِقًا فِي عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ المَوْجُودَاتِ وَكُلَّ إِرَادَةٍ مُسْتَغْرِقَةً فِي إِرَادَتِهِ الَّتِي يَمْتَنِعُ أَنْ يَأْبَى عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنَ المُمْكِنَاتِ، بَلْ

كُلُّ وُجُودٍ وَ كُلُّ كَمَالٍ وجودٍ فَهُوَ صَادِرٌ عَنْهُ فَائِضٌ مِنْ لَدُنْهُ صَارَ الحَقُّ حِينَئِذٍ بَصَرَهُ الَّـذي بِهِ يُبْصِرُ، وَسَـمْعَهُ الَّذي بِهِ يَسْـمَعُ، وَقُدْرَتَهُ الَّتي بِهَا يَفْعَـلُ، وَ عِلْمَهُ الَّذي بِهِ يَعْلَـمُ، وَ وُجُودَهُ الَّـذي بِهِ يُوجَدُ، فَصَارَ العَارِفُ حِينَئِـذٍ مُتَخَلِّقاً بِأَخْلاَقِ اللهِ تَعالى بِالحَقِيقَةِ)[٢١].

هَـذَا المَقْطَعُ يُظْهِرُ قَبُـولَ الخَوَاجَةِ الطُّوسيِّ لِلنَّظْرَةِ العِرْفَانِيَّـةِ الَّتي تَرَى العَلاَقَةَ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ عَلاَقَةَ اتِّصَالٍ وَشُهُودٍ بَعْدَ تَرْوِيضِ النَّفْسِ وَتَزْكِيَتِهَا.

٤- كِتَابُهُ فِي الأَخْلاَقِ العِرْفَانِيَّةِ: (أَوْصَافُ الأَشْرَافِ): هَذَا الكِتَابُ مِنْ حَيْثُ الحَجْمُ صَغِيرٌ جِدًّا، إِلَّا أَنَّ مُحْتَوَاهُ رَاقٍ وَمَمْلُوءٌ بِالمَعَارِفِ، دَوَّنَ المُحَقِّقُ الطُّوسيُّ كِتَابَ «أَوْصَـافِ الأَشْرَافِ» فِي سِـتَّةِ أَبْـوَابٍ، كُلُّ بَابٍ مِنْهَا يَحْتَوِي عَلَى سِـتَّةِ فُصُولٍ، عَدَا البَـابَ السَّـادِسَ مِنْهَا، الَّذِي هُـوَ فِي بَيَانِ نِهَايَةِ حَرَكَـةِ الإِنْسَـانِ، وَمَوْضُوعُهُ الفَنَاءُ فِي التَّوْحِيـدِ، لِـذَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ فُصُولٌ أُخَرُ، يَخْتَصُّ كُلُّ بَابٍ مِنْ هَذِهِ الأَبْوَابِ السِّـتَّةِ وَالفُصُـولِ المُخْتَلِفَـةِ الَّتِي فِيهَـا، بِمَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ السُّـلُوكِ، وَمَرْتَبَـةٍ مِنْ مَرَاتِبِ سَـيْرِ السَّـالِكِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَلَا شَـكَّ فِي أَنَّ السُّـلُوكَ نَوْعُ حَرَكَةٍ، وَهَذِهِ الحَرَكَةُ نَاشِـئَةٌ مِنَ الشَّوْقِ الَّذِي يُلْهِبُ بَاطِنَ الإِنْسَانِ، وَبِدَايَةُ ظُهُورِ هَذَا الشَّوْقِ هُوَ اطِّلاَعُ الإِنْسَانِ عَلَى نَقْصِهِ وَفَقْرِهِ، فَعِنْدَمَا يَقِفُ الإِنْسَانُ عَلَى نَقْصِهِ يَشْرَعُ بِالسَّيْرِ لِلْوُصُولِ إِلَى الكَـمَالِ، حَيْثُ يَـرَى المُحَقِّقُ الطُّوسيُّ أَنَّ السُّـلُوكَ هُوَ نَوْعُ حَرَكَـةٍ، وَيُبَيِّنُ مَعْنَى هَـذِهِ الحَرَكَـةِ بِالقَوْلِ بِـأَنَّ كُلَّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِـلِ الحَرَكَةِ تَقَعُ بَيْنَ الفُقْدَانِ السَّـابِقِ وَالوُجْدَانِ اللَّاحِقِ؛ حَيْثُ يَتَحَقَّقُ الوُجْدَانُ اللَّاحِقُ بِمُجَرَّدِ الفُقْدَانِ السَّابِقِ، وَبَعْدَ الوُجْـدَانِ اللَّاحِـقِ تَنْتَهِي الحَرَكَةُ، وَعَلَى هَذَا الأَسَـاسِ، فِي كُلِّ مَرْحَلَـةٍ مِنْ مَرَاحِلِ الحَرَكَةِ، أَوْ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ السَّـالِكِ، إِذَا قِيسَـتْ إِلَى المَرْحَلَةِ السَّـابِقَةِ فَهِيَ كَمَالٌ،

وَأَمَّا إِذَا أُخِذَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى المَرْحَلَةِ التَّالِيَةِ فَتُعَدُّ نَقْصًا، وهُنَا يُشِيرُ المُحَقِّقُ الطُّوسيُّ إِلَى الحَدِيثِ المَأْثُورِ عَنِ النَّبِيِّ الأَكْرَمِ صلى الله عليه وآله الَّذِي يَقُولُ فِيهِ: «مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ»[٢٢]، وكَذَا إِلَى الحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «حَسَنَاتُ الأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ المُقَرَّبِينَ»[٢٣]، ويَعْتَقِدُ المُحَقِّقُ الطُّوسيُّ بِأَنَّ الحَرَكَةَ فِي حَالَةِ اشْتِدَادٍ دَائِمٍ، كَمَا يَرَى أَنَّ السُّلُوكَ مُرْتَبِطٌ بِعَمَلِيَّةِ اسْتِكْمَالٍ، ويَتِمُّ فِي هَذَا الاشْتِدَادِ والاسْتِكْمَالِ عَمَلِيَّةُ الانْتِقَالِ مِنَ النَّقْصِ إِلَى الكَمَالِ، ونُلَاحِظُ أَنَّهُ بَعْدَ عِدَّةِ قُرُونٍ مِنْ عَصْرِ المُحَقِّقِ الطُّوسيِّ، أَتَى صَدْرُ المُتَأَلِّهِينَ الشِّيرَازِيُّ لِيُؤَكِّدَ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ، ويرى أَنَّ الحَرَكَةَ الجَوْهَرِيَّةَ تَبْتَنِي عَلَى هَذَا الأَسَاسِ، لَقَدِ اسْتَنَدَ المُحَقِّقُ الطُّوسيُّ فِي تَأْلِيفِهِ كِتَابَ (أَوْصَافِ الأَشْرَافِ) إِلَى الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ والرِّوَايَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَسْعَى دَائِمًا أَنْ لَا يَحْصُرَ نَفْسَهُ فِي دَائِرَةٍ كَلَامِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ يُحْسَبَ عَلَى طَرَفٍ مُحَدَّدٍ، وبِمِقْدَارِ مَا كَانَ عَقْلُهُ النَّظَرِيُّ وَفِيًّا لِلْمَوَازِينِ العَقْلِيَّةِ المُحْكَمَةِ والمُعْتَبَرَةِ، ومُعْتَمِدًا عَلَيْهَا، كَانَ يَرْتَكِزُ عَلَى المُسَلَّمَاتِ العَقْلِيَّةِ فِي مَجَالِ العَقْلِ العَمَلِيِّ أَيْضًا، ولَمْ يَكُنْ يَحِيدُ أَبَدًا عَنِ المُعْطَيَاتِ العَقْلِيَّةِ فِي عَمَلِهِ، اسْتَشْهَدَ المُحَقِّقُ الطُّوسيُّ فِي جَمِيعِ فُصُولِ كِتَابِهِ، وفِي بِدَايَةِ كُلِّ فَصْلٍ بِآيَةٍ مِنْ آيَاتِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وكَانَ يَسْعَى مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ إِلَى بِنَاءِ مَنْظُومَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ مُسْتَفَادَةٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وهذا دَلِيلٌ عَمَلِيٌّ عَلَى اهْتِمَامِ نَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسيِّ بِالجَوَانِبِ التَّطْبِيقِيَّةِ لِلْعِرْفَانِ من خلال القرآن الكريم.

٢- الشَّيْخُ كَمَالُ الدِّينِ مَيْثَمُ البَحْرَانِيُّ أستاذ العلَّامة الحلّي:

يُعْتَبَرُ الشَّيْخُ كَمَالُ الدِّينِ مَيْثَمُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مَيْثَمَ البَحْرَانِيُّ (ت ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م[٢٤] مِنْ أَبْرَزِ الفَلَاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ زَاوَجُوا بِبَرَاعَةٍ بَيْنَ العَقْلَانِيَّةِ الفَلْسَفِيَّةِ، وَالمَنْهَجِ الكَلَامِيِّ وَبَيْنَ البُعْدِ العِرْفَانِيِّ الصُّوفِيِّ، وَتَظْهَرُ آرَاؤُهُ فِي النَّفْسِ وَعَلَاقَةِ

العِرْفَانِ بِنَظَرِيَّةِ المَعْرِفَةِ بِوُضُوحٍ فِي شُرُوحِهِ، خَاصَّةً فِي «مِصْبَاحِ السَّالِكِينَ» عَلَى نَهْجِ البَلَاغَةِ، وَشَرْحِهِ «مِنْهَاجِ العَارِفِينَ» عَلَى المِائَةِ كَلِمَةٍ لِلْإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام.

آرَاؤُهُ فِي النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ: يَرَى الشَّيْخُ ابْنُ مَيْثَمٍ البَحْرَانِيُّ النَّفْسَ الإِنْسَانِيَّةَ كِيَانًا مُعَقَّدًا يَمْتَلِكُ قُوَّتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُهَا مِنْ مَنْظُورٍ فَلْسَفِيٍّ كَلَامِيٍّ يَمِيلُ إِلَى نَهْجِ الفَلَاسِفَةِ الإِسْلَامِيِّينَ (كَابْنِ سِينَا).

قُوَّتَا النَّفْسِ (القُوَّةُ العَامِلَةُ، وَالقُوَّةُ العَالِمَةُ):

القُوَّةُ العَامِلَةُ (العَمَلِيَّةُ): هِيَ القُوَّةُ الَّتِي تُعْنَى بِتَدْبِيرِ البَدَنِ وَتَكْمِيلِهِ، وَهِيَ الأَسَاسُ فِي تَكْوِينِ الأَخْلَاقِ وَالرِّيَاضَةِ الرُّوحِيَّةِ (السُّلُوكِ).

القُوَّةُ العَالِمَةُ (النَّظَرِيَّةُ): هِيَ القُوَّةُ المُتَعَلِّقَةُ بِالإِدْرَاكِ وَالمَعْرِفَةِ، وَهَدَفُهَا تَكْمِيلُ جَوْهَرِ النَّفْسِ لِتُصْبِحَ عَقْلًا بِالفِعْلِ، وَهِيَ الَّتِي تَتَأَثَّرُ عَنِ المَبَادِئِ العُلْوِيَّةِ وَتَتَلَقَّى الكَمَالَاتِ[٢٥].

كَمَالُ النَّفْسِ وَمَعْرِفَةُ اللهِ: يَرْبِطُ ابْنُ مَيْثَمٍ صَرَاحَةً بَيْنَ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ وَمَعْرِفَةِ الرَّبِّ، مُسْتَنِدًا إِلَى القَوْلِ المَأْثُورِ: (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ)[٢٦].

وَيَرَى أَنَّ مَعْرِفَةَ النَّفْسِ تَقْتَضِي الاِطِّلَاعَ عَلَى عُيُوبِهَا وَنَقَائِصِهَا وَفَقْرِهَا الذَّاتِيِّ إِلَى الكَمَالَاتِ الخَارِجِيَّةِ الَّتِي تُفَاضُ عَلَيْهَا، هَذَا الاِطِّلَاعُ عَلَى فَقْرِ النَّفْسِ وَنَقْصِهَا يَسْتَلْزِمُ بِالضَّرُورَةِ مَعْرِفَةَ عِلَّتِهَا وَكَمَالِهَا، وَهُوَ اللهُ تَعَالَى.[٢٧]

تَزْكِيَةُ النَّفْسِ (العِرْفَانُ العَمَلِيُّ): شَرْحُهُ لِنَهْجِ البَلَاغَةِ مَمْلُوءٌ بِالمَبَاحِثِ الرُّوحِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي تَهْيِمُنُ عَلَيْهَا فِكْرَةُ العِرْفَانِ العَمَلِيِّ (الرِّيَاضَةِ الرُّوحِيَّةِ)، حَيْثُ يَدْعُو إِلَى تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الشَّوَائِبِ كَحُبِّ المَالِ المَذْمُومِ، وَالشَّهَوَاتِ؛ لِتَهْيِئَتِهَا لِاسْتِقْبَالِ المَعَارِفِ العُلْيَا[٢٨].

عَلاقَةُ العِرْفانِ بنَظَرِيَّةِ المَعْرِفَةِ: يَتَمَيَّزُ ابْنُ مَيْثَم البَحْرَانيُّ بـالمُزاوَجَةِ بَيْنَ البُرْهانِ العَقْـلِيِّ وَالعِرْفـانِ الذَّوْقِـيِّ في مَصادِرِ المَعْرِفَةِ، وَلا يَـرى تَناقُضًا بَيْنَهُـما، بَلْ يَجْعَلُهُما طَرِيقَيْنِ مُتَكامِلَيْنِ لِلْوُصُولِ إِلَى الحَقِيقَةِ الإِلَهِيَّةِ.

تَكامُلُ المَعْرِفَةِ: مَعْرِفَةُ النَّفْسِ سَبِيلٌ لِمَعْرِفَةِ الرَّبِّ (ذَوْقًا وَبُرْهانًا) حيث يُوَضِّحُ ابْنُ مَيْثَم أَنَّ الإِنْسـانَ بَعْدَ أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَـهُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَلْزِمَ مَعْرِفَةَ رَبِّهِ "إِمَّا بِحَسَبِ ذَوْقِ العِرْفانِ أَوْ بِحَسَبِ سَوْقِ البُرْهانِ، وَيُؤَكِّدُ أَنَّ الحَقِيقَةَ وَاحِدَةٌ، وَالوُصُولَ إِلَيْهَا مُمْكِنٌ عَبْرَ طَرِيقَيْنِ، التَّأَمُّلِ العَقْلِيِّ (البُرْهانِ)، وَالتَّجْرِبَةِ الرُّوحِيَّةِ (العِرْفانِ)[٢٩].

الجَامِعِيَّـةُ المَعْرِفِيَّةُ: يُطْلَقُ عَـلى ابْنِ مَيْثَم لَقَبُ جَامِعِ المَعْقُولِ وَالمَنْقُولِ، وَالحَكِيمِ المُتَأَلِّـهِ، وَالعالِمِ الرَّبَّانِيِّ[٣٠]، مِمَّـا يَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى تَحْقِيقِ الوَحْـدَةِ بَيْنَ هَذِهِ المَناهِجِ المُتَنَوِّعَةِ لِخِدْمَةِ هَدَفٍ وَاحِدٍ هُوَ الوُصُولُ إِلَى المَعْرِفَةِ الإِلَهِيَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالكامِلَةِ.

أثـر علـماء الحلَّة في تطـوّر علم العرفـان: كان لبعـض علماء الحلَّـة تأثير طرح وتطوير التَّيار العرفانيّ في مدرسة الحلَّة، على الرّغم من أنَّ السَّاحة العلميَّة في الحلَّة كانت تتسـمُ بوجودِ تيـاراتٍ فكريةٍ متعـددةٍ منها الكلام والفقـه والحديث، وعلى الرّغـم مـن أنَّ بحوثهـم في كتبهم العقليَّة على أسـاس المباني الكلاميَّة والفلسـفيَّة، إلَّا أنَّهم كانوا يعتقدون بوجود نوع أسـمى مـن المعرفة وهي المعرفة العرفانيَّة ومن ضمن هؤلاء العلماء:

١ - السَّيِّدُ ابْنُ طَاوُوس (ت ٦٦٤ هـ):

يُعَـدُّ السَّـيِّدُ رَضِيُّ الدِّيـنِ عَـلِيُّ بْـنُ مُوسَـى بْـنِ جَعْفَـرِ بْـنِ طَـاوُوسٍ (ت ٦٦٤هـ)[٣١] مِـنْ أَبْـرَزِ عُلَـمَاءِ الشِّـيعَةِ فِي القَرْنِ السَّـابِعِ الهِجْـرِيِّ، وَيُعْـرَفُ بِـ «إِمَـامِ العَارِفِينَ»[٣٢] وَ«جَمَالِ العَارِفِـينَ»[٣٣]، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى المَكَانَـةِ الرَّفِيعَةِ لِآرَائِهِ وَسُـلُوكِهِ العِرْفَانِيِّ.

تَتَجَلَّى آرَاءُ السَّيِّدِ ابْنِ طَاوُوسٍ العِرْفَانِيَّةُ فِي عِدَّةِ مَحَاوِرَ، أَهَمُّهَا:

١- المَنْهَجُ العِرْفَانِيُّ القَائِمُ عَلَى العِبَادَةِ وَالدُّعَاءِ: يُعَدُّ السَّيِّدُ ابْنُ طَاوُوسٍ أُنْمُوذَجًا لِلْعِرْفَانِ العَمَلِيِّ (السَّيرِ وَالسُّلُوكِ) المُسْتَنِدِ بِشَكْلٍ أَسَاسِيٍّ إِلَى العِبَادَةِ، وَالدُّعَاءِ، وَالزِّيَارَاتِ المَأْثُورَةِ عَنْ أَهْلِ البَيْتِ عليهم السلام فَتَرْكِيزُهُ عَلَى هَذِهِ الجَوَانِبِ يُمَثِّلُ مَدْرَسَةً عِرْفَانِيَّةً أَصِيلَةً لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الفَلْسَفَةِ العَقْلِيَّةِ أَوِ التَّأْوِيلَاتِ البَعِيدَةِ.

٢- العِبَادَاتُ كَطَرِيقٍ لِلسُّلُوكِ: كَانَ يَرَى فِي العِبَادَاتِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ (كَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالمُسْتَحَبَّاتِ) أَسَاسًا لِلسَّيْرِ إِلَى اللهِ، وَيَعْتَنِي بِـ"أَسْرَارِ العِبَادَاتِ" الَّتِي تُعَدُّ مِنْ شُؤُونِ العِرْفَانِ.

٣- الدُّعَاءُ وَالزِّيَارَةُ: تُشَكِّلُ مُؤَلَّفَاتُهُ الغَزِيرَةُ فِي الدُّعَاءِ وَالزِّيَارَاتِ، مِثْلِ «مُهَجِ الدَّعَوَاتِ وَمَنْهَجِ العِبَادَاتِ» وَ «الإِقْبَالِ لِصَالِحِ الأَعْمَالِ»، الدَّلِيلَ الأَكْبَرَ عَلَى مَنْهَجِهِ، فَالأَدْعِيَةُ وَالزِّيَارَاتُ فِي نَظَرِهِ هِيَ وَسِيلَةٌ لِلتَّزْكِيَةِ، وَأَدَبِ النَّفْسِ، وَالمُعَامَلَةِ الصَّادِقَةِ مَعَ اللهِ، وَهِيَ خُلَاصَةُ المَعْرِفَةِ الصَّالِحَةِ الهَادِيَةِ.

٤- التَّوَجُّهُ الكَامِلُ إِلَى اللهِ (المُرَاقَبَةُ وَالمُحَاسَبَةُ): يَتَمَيَّزُ فِكْرُهُ بِالتَّرْكِيزِ الشَّدِيدِ عَلَى اليَقَظَةِ الرُّوحِيَّةِ وَدَوَامِ التَّوَجُّهِ إِلَى الخَالِقِ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ فِي السُّلُوكِ العِرْفَانِيِّ بِالمُرَاقَبَةِ وَالمُحَاسَبَةِ.

٥- دَوَامُ التَّوَجُّهِ: يُوصَفُ بِأَنَّهُ كَانَ «دَائِمَ التَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى» بِشَكْلٍ كَامِلٍ، لَا يَصْرِفُ اهْتِمَامَهُ لِغَيْرِهِ، وَيَسْعَى لِأَنْ يَكُونَ كُلُّ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ[٣٤].

٦- مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ: أَلَّفَ كِتَابًا بِاسْمِ «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ»، مِمَّا يُؤَكِّدُ أَهَمِّيَّةَ هَذَا الجَانِبِ كَرِكِيزَةٍ أَسَاسِيَّةٍ فِي السُّلُوكِ العِرْفَانِيِّ لَدَيْهِ.

٧- العُزْلَـةُ وَالزُّهْدُ: عُرِفَ بِزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ، وَرَفْضِـهِ لِلْمَنَاصِبِ الحُكُومِيَّةِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَيْهِ (كَالنِّقَابَةِ وَالوِزَارَةِ فِي زَمَنِ العَبَّاسِيِّينَ) تَوَرُّعًا، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى تَفْضِيلِهِ العُزْلَةَ الرُّوحِيَّةَ وَالانْصِرَافَ إِلَى اللهِ[٣٥].

٨- الوَصَايَـا الأَخْلَاقِيَّةُ وَالعِرْفَانِيَّـةُ: تَظْهَرُ آرَاؤُهُ العِرْفَانِيَّةُ بِوُضُـوحٍ فِي وَصَايَاهُ لِوَلَدِهِ مُحَمَّدٍ، وَالَّتِي جَمَعَهَا فِي كِتَابِهِ «كَشْـفِ المَحَجَّةِ لِثَمَرَةِ المُهْجَةِ»، الَّذِي يُعَدُّ إِرْشَادًا إِلَى السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ، هُوَ فِي الأَسَاسِ وَصَايَا أَخْلَاقِيَّةٌ وَعِرْفَانِيَّةٌ لِوَلَدِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَإِرْشَادٌ لَهُـمْ إِلَى "طَرِيـقِ السَّـيرِ وَالسُّـلُوكِ" عَلَى مَـا ارْتَضَاهُ الشَّـارِعُ لَهُمْ، حَيثُ يَقـولُ: (فِيمَا أَذْكُرُهُ مِنَ العُذْرِ فِي الاقْتِصَارِ فِي الوَصِيَّةِ عَلَى المَوَاهِبِ العَقْلِيَّةِ دُونَ اسْـتِيفَاءِ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، اعْلَمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِمَّنْ عَرَفْتُهُ مِنَ المُصَنِّفِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى المَعْرُوفِ وَالمَأْلُوفِ مِنْ آدَابٍ وَأَسْـبَابٍ فِي وَصَايَا أَوْلَادِهِمْ يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَرَأَيْتُ أَنَا أَنَّ مُتَابَعَتَهُمْ فِي ذَلِكَ تَضْيِيعٌ لِوَقْتِي، إِذْ كَانَ يَكْفِي أَنْ أَدُلَّهُمْ عَلَى تِلْكَ الكُتُبِ وَمَا فِيهَا مِنَ الآدَابِ، وَمَا كُنْـتُ أَنْ أَحْتَـاجَ إِلَى أَنْ أَتَكَلَّفَ تَصْنِيفَ كِتَابٍ، وَإِنَّمَا أَذْكُرُ مَـا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَوْ أَكْثَرُ مِمَّا لَا يُوجَدُ فِي رَسَائِلِ مَنْ ذَكَرْتُ مِنْ أَصْحَابِنَا العُلَمَاءِ فِي تَصَانِيفِهِمْ لِأَوْلَادِهِمْ مِمَّا أَخَافُ أَنَّ أَوْلَادِي لَا يَظْفَرُونَ مِنْ غَيْرِ كِتَابِي هَذَا بِمُرَادِهِمْ لِدُنْيَاهُمْ وَمَعَادِهِمْ، إِلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُمُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ الَّذِي هُوَ بِهِمْ أَرْحَمُ وَعَلَيْهِمْ أَكْرَمُ مِنْ خِزَانَتِهِ)[٣٦].

٩- الاتِّبَـاعُ وَالمُتَابَعَـةُ: كَانَ يَـرَى أَنَّ وَصَايَـاهُ هِـيَ سَـبِيلٌ مَسْـلُوكٌ لِلْأَنْبِيَـاءِ وَالأَوْصِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ وَالعُلَمَاءِ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ فِي المُتَابَعَةِ لَهُمْ، مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ عِرْفَانَهُ يَنْبُعُ مِنْ مَدْرَسَةِ أَهْلِ البَيْتِ عليهم السلام وَيُشَدِّدُ عَلَى ضَرُورَةِ الاتِّبَاعِ الشَّرْعِيِّ[٣٧].

بِاخْتِصَارٍ، يُمْكِنُ وَصْفُ عِرْفَانِ السَّيِّدِ ابْنِ طَاوُوسٍ بِأَنَّهُ عِرْفَانٌ عَمَلِيٌّ شِيعِيٌّ صِرْفٌ، قِوَامُـهُ الالْتِـزَامُ الشَّـدِيدُ بِالشَّرْعِ وَالزُّهْـدِ، وَكَثْرَةُ العِبَادَةِ وَالدُّعَـاءِ المَأْثُورِ، وَالمُرَاقَبَةُ الدَّائِمَةُ لِلنَّفْسِ لِلْوُصُولِ إِلَى المَعْرِفَةِ، وَالوَصْلِ الإِلَهِيِّ.

٢- العَلَّامَةُ ابْنُ فَهْدٍ الحِلِّيُّ (ت ٨٤١ هـ) الفَقِيهُ العَارِفُ الزَّاهِدُ:

ابْنُ فَهْدٍ الحِلِّيُّ هُوَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ فَهْدٍ الأَسَدِيُّ الحِلِّيُّ، المُلَقَّبُ بِجَمَالِ الدِّينِ وَالمُكَنَّى أَبَا العَبَّاسِ، اشْتُهِرَ بِكَوْنِهِ مِنَ العُلَمَاءِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الفِقْهِ الاسْتِدْلَالِيِّ العَمِيقِ وَالزُّهْدِ وَالسُّلُوكِ العِرْفَانِيِّ، فَكَانَ قُطْبًا عِلْمِيًّا وَرُوحِيًّا فِي عَصْرِهِ(٣٨).

الجَانِبُ العِرْفَانِيُّ: يَتَجَلَّى الجَانِبُ العِرْفَانِيُّ (السُّلُوكِيُّ وَالأَخْلَاقِيُّ) فِي آرَاءِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ فَهْدٍ الحِلِّيِّ (ت ٨٤١ هـ) مِنْ خِلَالِ اهْتِمَامِهِ بِالزُّهْدِ، وَ العِبَادَةِ، والسَّيْرِ وَالسُّلُوكِ إِلَى اللهِ، وَالأَخْلَاقِ العَالِيَةِ، مَعَ الحِرْصِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ العِرْفَانِ الإِسْلَامِيِّ الصَّحِيحِ وَالتَّصَوُّفِ المُنْحَرِفِ(٣٩).

مَلَامِحُ آرَاءِ ابْنِ فَهْدٍ الحِلِّيِّ العِرْفَانِيَّةِ: يُعَدُّ ابْنُ فَهْدٍ الحِلِّيُّ، الَّذِي كَانَ فَقِيهًا وَمُتَكَلِّمًا وَعَارِفًا زَاهِدًا، مِنْ أَبْرَزِ العُلَمَاءِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ العُلُومِ العَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ وَبَيْنَ الفِقْهِ وَالسُّلُوكِ، وَتَتَلَخَّصُ آرَاؤُهُ العِرْفَانِيَّةُ فِيمَا يَلِي:

١- تَعْرِيفُهُ لِلْعِرْفَانِ: «يَرَى ابْنُ فَهْدٍ الحِلِّيُّ أَنَّ العِرْفَانَ هُوَ المَنْهَجُ الإِسْلَامِيُّ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّهْذِيبِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَنْ حُبٍّ، وَإِخْلَاصٍ، لَا عَنْ رَجَاءٍ وَثَوَابٍ، وَلَا عَنْ خَوْفٍ وَعَذَابٍ، فَالعِرْفَانُ إِذَنْ طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ العِبَادَةِ، عِبَادَةِ الحُبِّ وَالإِخْلَاصِ، لَا عِبَادَةِ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ»(٤٠).

٢- الزُّهْدُ وَالسُّلُوكُ: اشْتُهِرَ ابْنُ فَهْدٍ الحِلِّيُّ بِشِدَّةِ زُهْدِهِ وَوَرَعِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَسُلُوكِهِ مَسْلَكَ العَارِفِينَ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى اهْتِمَامِهِ البَالِغِ بِالجَانِبِ العَمَلِيِّ لِلسَّيْرِ إِلَى اللهِ، وَقَدْ وُصِفَ بِأَنَّهُ «الزَّاهِدُ العَارِفُ» وَ«قُدْوَةُ المُوَحِّدِينَ»، وَ «نَادِرَةُ العَارِفِينَ وَالزَّاهِدِينَ»(٤١).

٣- التَّأْلِيفُ فِي السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ: أَهَمُّ مَا يَعْكِسُ آرَاءَهُ العِرْفَانِيَّةَ هُوَ مُؤَلَّفَاتُهُ الَّتِي تُرَكِّزُ عَلَى تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَالعِبَادَةِ، وَأَبْرَزُهَا:

أ- كِتَابُ عُدَّةِ الدَّاعِي وَنَجَاحِ السَّاعِي: وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ كُتُبِهِ فِي الأَخْلَاقِ وَالآدَابِ وَالدُّعَاءِ.

ب- رِسَالَةُ التَّحْصِينِ فِي صِفَاتِ العَارِفِينَ: وَهِيَ رِسَالَةٌ خَاصَّةٌ تَتَنَاوَلُ العُزْلَةَ كَصِفَةٍ يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا السَّالِكُ، وَفِيهَا حَثٌّ عَلَى العُزْلَةِ وَتَجَنُّبِ الشُّهْرَةِ.

٤- مَوْقِفُهُ مِنَ التَّصَوُّفِ: عَلَى الرَّغْمِ مِنِ اشْتِهَارِهِ بِالزُّهْدِ وَالسُّلُوكِ وَكَوْنِهِ أَحَدَ «السَّالِكِينَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ»، إِلَّا أَنَّ البَعْضَ نَسَبَهُ إِلَى التَّصَوُّفِ، غَيْرَ أَنَّ العُلَمَاءَ المُدَافِعِينَ عَنْهُ يُوَضِّحُونَ أَنَّهُ يَسْلُكُ مَسْلَكَ العِرْفَانِ الإِسْلَامِيِّ الصَّحِيحِ وَيُمَيِّزُهُ عَنِ التَّصَوُّفِ المُنْحَرِفِ(٤٢).

التَّفْرِيقُ بَيْنَ العِرْفَانِ وَالتَّصَوُّفِ: يَرَى عُلَمَاءُ الشِّيعَةِ أَنَّ مَا نُسِبَ لِابْنِ فَهْدٍ الحِلِّيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَجِلَّاءِ (كَابْنِ طَاوُوسٍ وَالشَّهِيدِ الثَّانِي) لَيْسَ هُوَ التَّصَوُّفَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى فَسَادِ الاعْتِقَادِ (كَالحُلُولِ وَوَحْدَةِ الوُجُودِ) أَوْ فَسَادِ الأَعْمَالِ (كَالأَعْمَالِ المُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ)، بَلْ هُوَ: «الانْقِطَاعُ إِلَى الخَالِقِ جَلَّ شَأْنُهُ، وَالتَّخَلِّي عَنِ الخَلْقِ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّفَانِي فِي حُبِّهِ تَعَالَى»(٤٣).

٥- كِتَابُ أَسْرَارِ الصَّلَاةِ: يُعَدُّ كِتَابُ أَسْرَارِ الصَّلَاةِ (أَوْ مَعَانِي أَفْعَالِ الصَّلَاةِ وَأَقْوَالِهَا) لِابْنِ فَهْدٍ الحِلِّيِّ مِنْ أَهَمِّ الأَعْمَالِ الَّتِي أَسَّسَتْ لِمَدْرَسَةِ العِرْفَانِ الفِقْهِيِّ، وَالَّتِي تُوَجِّهُ المُصَلِّيَ نَحْوَ عُمْقِ العِبَادَةِ بَدَلًا مِنَ الاقْتِصَارِ عَلَى شَكْلِهَا الظَّاهِرِيِّ، فَالكِتَابُ عِبَارَةٌ عَنْ رِسَالَةٍ مُخْتَصَرَةٍ لَكِنَّهَا عَمِيقَةٌ، يَنْصَبُّ مُحْتَوَاهَا بِشَكْلٍ أَسَاسِيٍّ عَلَى شَرْحِ المَعَانِي البَاطِنِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الصَّلَاةِ، مِنَ التَّكْبِيرَةِ الأُولَى إِلَى التَّسْلِيمِ.

المَنْهَجُ وَالمُحْتَوَى: المَنْهَجُ الَّذِي اعْتَمَدَهُ ابْنُ فَهْدٍ الحِلِّيُّ فِي هَذَا الكِتَابِ هُوَ السُّلُوكُ العِرْفَانِيُّ المُعْتَمِدُ عَلَى النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، حَيْثُ يَرْبِطُ بَيْنَ الحَرَكَةِ الظَّاهِرِيَّةِ

لِلْمُصَلِّي وَبَيْنَ المَعْنَى البَاطِنِيِّ المَطْلُوبِ؛ لِتَحْقِيقِ الخُشُوعِ وَالحُضُورِ القَلْبِيِّ.

الهَدَفُ الأَسَاسِيُّ مِنَ الكِتَابِ: يَسْعَى كِتَابُ أَسْرَارِ الصَّلَاةِ إِلَى تَحْوِيلِ الصَّلَاةِ مِنْ مُجَرَّدِ أَدَاءٍ فِقْهِيٍّ وَاجِبٍ إِلَى مِعْرَاجٍ رُوحِيٍّ وَلِقَاءٍ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ.

الخُلَاصَةُ: إِنَّ آرَاءَ ابْنِ فَهْدٍ الحِلِّيِّ العِرْفَانِيَّةَ هِيَ امْتِدَادٌ لِـ «مَدْرَسَةِ العِرْفَانِ الفِقْهِيِّ» الشِّيعِيَّةِ، الَّتِي تُوَفِّقُ بَيْنَ الالتِزَامِ التَّامِّ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَالفِقْهِ وَبَيْنَ ضَرُورَةِ السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ الرُّوحِيِّ وَالزُّهْدِ لِلْوُصُولِ إِلَى مَرَاتِبِ الكَمَالِ.

٣- السَّيد حيدر الآملي (ت٧١٩ - ٧٩٤ هـ تقريباً).

هو السَّيد حيدر بن عليّ بن حيدر بن عليّ العلويّ الحسينيّ الآمليّ المازندرانيّ الصوفيّ المعروف بالآمليّ،[٤٤] ويلقب السَّيد حيدر الآمليّ ألقابًا عديدة كان يلقب بركن الدّين وركن الحقِّ والملَّة والدّين، و بهاء الدّين، ومن ألقابه التي كان يفخرُ بها زين العابدين، وهذا اللَّقب أطلقه عليه أستاذه فخر المحقّقين ابن العلَّامة الحلّي، وقد ذكر ذلك بنفسه[٤٥].

نسبه: يعود نسب السَّيد حيدر إلى الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وكما صرّح في مقدِّمة كتابه تفسير المحيط الأعظم بتوسط تسعة عشر جيلاً[٤٦].

أقوال العلماء فيه[٤٧]:

قال صاحب الرياض: فاضلٌ عالمٌ جليلٌ مفسّرٌ فقيهٌ محدّث كان من عظماءِ علماءِ الإماميَّة، و كان من أفاضلِ علماءِ الصّوفيَّة إماميِّ المذهب.

القاضي نور الله في مجالس المؤمنين: ذكره من أصحابنا الإماميَّة سيّد المتألّهين السَّيّد العارف المحقّق الأوحدي، من علماء الشّيعة، أفضل المتألّهين من أكابر سادات آمل الرَّفيعيّ الدَّرجات.

ووصفه الشّيخ الفقيه الفاضل محمَّد بن أبي جمهور في شرح بعض الرَّسائل الكلاميَّة: بالسّيد العلّامة المتأخر صاحب الكشف الحقيقيِّ وقال: إنَّ علو مرتبته في علوم الظَّاهر والباطن ظاهرٌ كالنّورِ على شاهقِ الطّور.

الشّيخ البهائي قال عنه: له تفسير كبير بلسان الصّوفيَّة يدلُ على علو شأنهِ وارتفاع مكانه.

وقال عنه فخر الدين ولد العلَّامة: السَّيّدُ الأعظم، الإمامُ المُعظّم، أفضلُ العلماءِ في العالَم، أعلمُ فُضلاءِ بني آدَم، مُرشدُ السَّالكين، غِياثُ نفوسِ العارفين، مُحيي مَراسم أجدادِه الطَّاهرين، الجامعُ بَين المعقولِ و المنقول، و الفروعِ و الأصول، ذو النَّفسِ القُدسيَّة، و الأخلاقِ النَّبويّة، شَرفُ آلِ رسولِ ربِّ العالَمين، أفضلُ الحاجِّ و المعتمرين، المخصوصُ بعنايةِ ربِّ العالمين، ركنُ الملَّة و الدّين السَّيد حيدر ابن السَّيد السَّعيد ركن الدَّين علي بادشاه ابن السَّيد السَّعيد ركن الدين حيدر العلويّ الحسينيّ أدامَ اللهُ فضائله وأسبغ فواضله.

أساتذته: تلقّى العلوم الرسميّة و المقدّمات من أبيه و علماء آمُل، فأخذ العرفان عن الشيخ عبد الرحمن القدسيّ، والفقه عن فخر المحقّقين ابن العلّامة الذي كان يخاطبه باسم (زين العابدين)[٤٨].

ويرى أصحاب التراجم أن السَّيد حيدرًا نهل واستفاد في الحلّة من تعاليم استاذين كبيرين هما: نصير الدّين الكاشانيّ الحّليّ (٧٥٥ هـ)، وفخر المحقّقين (٦٨٢ - ٧٧١ هـ) ابن العلَّامة الحلّيّ[٤٩].

مؤلفاته[٥٠]: لقد كان السَّيد بهاء الدّين حيدر بن عليّ الآمليّ غزير الإنتاج، وتتركّز معظم مؤلفاته حول مشروعه الأساسيّ وهو الرَّبط بين العرفان النظريّ (مدرسة ابن عربيّ) وبين أصول التَّشيع الإماميّ، وأبرز مؤلفاته التي ذكرت في المصادر، مصنَّفة على وفق موضوعها وهي:

١- في التوحيد والعرفان الفلسفيّ: جامع الأسرار ومنبع الأنوار.

المحتوى: وهو الكتاب المؤسس لمشروعه، يهدف إلى إثبات أنَّ عقائد الصوفيَّة والعرفاء (خاصَّة في التَّوحيد والولاية) متوافقة تمامًا مع مذهب الإماميَّة الاثني عشريَّة.

٢- شرح «فصوص الحكم»: نصُّ النُّصوص في شرح فصوص الحكم.

المحتوى: من أهم شروحات كتاب فصوص الحكم لمحيي الدّين ابن عربيّ، وهو كتاب عرفانيّ دقيق في وحدة الوجود ومراتب التَّجلي الإلهي.

٣- في التَّفسير القرآني العرفاني: المحيط الأعظم والبحر الخضم في تفسير القرآن الأعظم.

المحتوى: تفسير كبير للقرآن الكريم يعتمد على المنهج العرفاني والباطني، ويكشف عن الأسرار والحقائق التي يراها وراء المعاني الظَّاهرة للآيات.

٤- في العقائد والتَّشيع: منهاج الهداية في تحقيق أمر الإمامة.

المحتوى: رسالة في إثبات أحقيَّة الإمامة والولاية للأئمة الاثني عشر، وتناولها من منظور فلسفي وعرفاني.

٥- في السّير والسّلوك العرفاني: رسالة علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين.

المحتوى: شرح للدَّرجات الثَّلاث للمعرفة (كما وردت في العرفان والفلسفة)، وله رسائل أخرى في هذا المجال.

٦- في النَّقد والمطارحات الفكريَّة: رسالة نقد المحصّل.

المحتوى: تعليق على كتاب المحصَّل للإمام فخر الدّين الرّازيّ، يوضح فيه رؤيته الكلاميَّة والفلسفيَّة.

آرَاء السَّيد حيدر الآمليّ العِرْفَانِيّة:

١- الوحدةُ الوجوديَّة والتَّوحيدُ الذَّاتي: يتبنى الآمليُّ مذهبَ وحدةِ الوجودِ على طريقةِ الشّيخ الأكبر ابن عربيّ، مؤكدًا أنَّ الوجود الحقيقي هو لله وحده، وأنَّ العالم هو تجليات لهذا الوجود الأحد، ويرى أنَّ التَّوحيد الحقيقيّ هو التَّوحيد الذَّاتيّ المطلق (وحدة الوجود)، حيث لا وجود حقيقيّ سوى للحقِّ تعالى، وكلُّ ما سوى ذلك هو صور وتجليات (مظاهر) لذلك الوجود[٥١].

٢- المراتب الإلهية الثلاث (المقامات): يقسّمُ الآمليُّ الحقيقةَ الإلهيَّةَ والكونيَّةَ إلى ثلاثِ مراتبٍ رَئيسةٍ (المقامات) تتفقُ مع المنهجِ العرفانيّ:

أ- مقامُ الغيبِ المطلق (الغيب الأحديّ): مرتبة الذَّات الأحدية التي لا يُعرف عنها شيء (الذَّات غير المتجلية)، وهي تسمى اللاهوت.

ب- مقام الأسماء والصفات (الوحدة الجمعية): مرتبة التعيّن الأول، وهي الحقيقة المحمدية.

ج- مقام الظّهور والفيض (الكثرة): مرتبة التَّعيّن الثَّاني، وهو عالم الأكوان والخلق (النَّاسوت والجبروت والملكوت)[٥٢].

٣- الولايـة الكليَّـة والختـم الإمامي: هذا هو الـرَّأيُّ المحوريُّ الـذي ربط به العرفان بالتَّشـيع، إذ يـرى أنَّ الولاية هي الحقيقـة الباطنيَّة للنّبوّة والرّسـالة، و أنَّ الولايـة الإلهيَّـة هي المقـام الأكمل، وهي باطـن الشَّريعة، وتنقسـم إلى ولاية عامَّة (لجميـع الأولياء) وولاية خاصَّـة (للأئمة)، والختم المطلق للولاية (التي تجمع بين التَّشريـع والتكوين) هو لأهل البيت عليهم السلام، وتحديدًا للإمـام المهدي المنتظر بوصفه خاتم الأولياء، ويرى أنَّ الأئمة الاثني عشر هم القطب وأركان الوجود والأسـماء التَّامة[٥٣].

٤- حقيقـة الإنسـان الكامـل (الحقيقة المحمَّديَّة): مثل سـائر العرفـاء، يؤمنُ الآمليُّ بحقيقةِ الإنسانِ الكاملِ كحلقةِ وصلٍ بين الحقِّ والخلق.

رأيـه: يرى الإنسـان الكامل هو الـبرزخ الجامع بين الحقائـق الإلهيَّة والحقائق الكونيَّـة، وهو أوّل تعـيّن للحقِّ (الحقيقة المحمَّديَّة/ العقـل الأول)، وهذه الحقيقة هي التي تتجلى في الأنبياء وتكتمل في الأئمة الاثني عشر[٥٤].

٥- الشريعـة والطَّريقـة والحقيقـة: يـرى الآمـليُّ أنَّ هذه المراتـب الثَّلاث غير منفصلة، وأنَّ الكمالَ يتمثلُ في الجمعِ بينها، وهو ما نجدهُ في مذهب الإماميَّة:

الشريعة: هي القشر والظَّاهر.

الطريقة: هي الباطن والمسلك العملي (السلوك).

الحقيقة: هي اللب والغاية القصوى (الكمال المعرفي).

إذ يـرى أنَّ المذهـب الإمامـي هـو الجامع لهذه المراتـب الثَّـلاث، فالفقه يمثل الشَّريعة، والولاية تمثل الحقيقة، وأئمة الشّيعة هم سادة الحقيقة[٥٥].

وفاتـه ومدفنه: لم يجزم أحد لا من العلماء ولا من المترجمين بتاريخ وفاة السَّـيد

حيدر الآمليّ على وجه الدّقة، لكن آخر مؤلف ألفه هو كتاب نص النّصوص وذلك بتاريخ ٧٨٢هـ[٥٦]، وذكر الطّهراني أنَّه له رسالة ألفها سنة ٧٨٧هـ[٥٧]، ومهما يكن من أمر فإنَّه لم يثبت تاريخ وفاته باليقين[٥٨]، وأمَّا مكان دفنه فقد اختلف فيه أيضًا، في النَّجف؟ أم في الحلّة؟ أم في آمل؟ ويدعي خواجوي أنَّ مقبرة في آمل منسوبة إليه في أسفل السّوق تعرف ببقعة مير حيدر[٥٩].

٤- الشيخ نصير الدين الكاشاني الحلي(٧٥٥ هـ)[٦٠].

هو علي بن محمد بن علي الكاشاني (أو القاشي)، لقب بنصير الدّين الكاشي، ونصير الدّين الحلّي، والحكيم، والمتألّه، والفقيه، ولد في كاشان بإيران، ولكنه سكن في الحلَّة بالعراق، ولذلك لقب بـ«الكاشاني الحلي» ولد في بكاشان في حدود سنة خمس وسبعين وستَ مئة، وسكن الحلّة، وتوفيّ في ١٠ رجب سنة ٧٥٥ هـ في المشهد المقدس الغروي (النجف الأشرف).

له مكانته العلميَّة بين العلماء، فقد كان من كبار علماء ومتكلمي وفلاسفة وفقهاء الإماميَّة في عصره، وقد أشاد به المؤرخون وطلاب العلم فقالوا فيه:

١ _ محسن الأمين: علي بن محمَّد الكاشيّ من علماء الإجازة...مولانا وشيخنا المولى القدوة القبلة سلطان الفقهاء والعلماء والمتكلمين نصير الملَّة والحقِّ والدّين[٦١].

٢- عباس القميّ: العالم المدقق الفهامة عليّ بن محمَّد بن عليّ الكاشانيّ الحلّيّ، من أجلَّة متأخري أصحابنا وكبار فقهائهم[٦٢].

٣- حيدر الآملي في كتاب منبع الأنوار: العليم العالم والحكيم الفاضل نصير الدّين الكاشيّ[٦٣].

٤- ابن العتائقي: الإمام الأعظم البارع الورع المعظم قطب الأولياء وخلاصة

الأصفياء سلطان الحكماء والفقهاء والمتكلمين شيخ مشايخ العارفين كعبة طلاب العلم والسَّالكين نصير الملَّة والحقِّ والدّين عليّ بن محمَّد الكاشيّ أدامَ الله أيامه وأعطاه في داريه مرامه بمحمَّد وآله الطَّاهرين[٦٤].

تلاميذه: من أبرز تلاميذه هو السَّيد حيدر الآملي، وكذلك تاج الدّين محمد بن القاسم ابن مُعيَّة الحسني، وجلال الدّين عبد الله بن شرفشاه الحسينيّ، وعبد الرَّحمن بن محمَّد المعروف بابن العتائقي[٦٥].

مؤلفاته[٦٦]: تتركّز معظم أعمال نصير الدّين الكاشانيّ الحليّ على التَّعليقات والشّروح والحواشيّ على متون الفلسفة والمنطق وعلم الكلام لعلماء سابقين مثل الخواجة نصير الدّين الطوسي والعلامة الحلي والقاضي البيضاوي، وهي:

١- النّكات في مسائل امتحانيَّة في علميّ المنطق والكلام.

٢- شرح «طوالع الأنوار» لعبد الله بن عمر البيضاويّ.

٣- حاشية على «تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد» لمحمود بن عبد الرَّحمن بن أحمد الأصفهانيّ.

٤- حاشية على «تحرير القواعد المنطقيَّة في شرح الشمسيَّة في المنطق لقطب الدّين محمَّد بن محمَّد الرازي.

٥- تعليقات على هوامش شرح الإشارات.

٦- رسالة مشتملة على عشرين إيرادًا على تعريف الطَّهارة في كتاب «القواعد» للعلاّمة الحلّيّ.

وترجم من الفارسيَّة إلى العربيَّة كتاب «الزبدة» في الهيئة للخواجة نصير الدّين محمَّد بن محمَّد بن الحسن الطّوسيّ.

آراؤه العرفانيَّة: إنَّ الآراء العرفانيَّة لنصير الدّين الكاشاني الحلّي (ت. ٧٥٥هـ) ليست بنفس وضوح وتركيز تلميذه (السيد حيدر الآملي)، إذ كان اهتمامه الرَّئيس منصبًا على علم الكلام والفلسفة العقليَّة والمنطق ، وبوصفه شخصيَّة رئيسة في زمن ازدهار الفكر العرفانيّ، تظهر ملامح من آرائه وتوجهاته العرفانيَّة من خلال شروحاته وتعليقاته على أعمال الفلاسفة والمتكلمين، فقد كان يميل إلى الجمع بين المنهجين العقلي والكشفي الذوقي، ويمكن استخلاص توجهاته العرفانيَّة من النّقاط الآتية:

١- إثبات الكشف والمشاهدة بصفتها مصدرًا للمعرفة: كانَ نصيرُ الدّين الكاشانيّ يدافعُ عن مشروعيَّة المعرفة الذَّوقيَّة الَّتي تحصلُ بالكشفِ والمشاهدةِ إلى جانبِ المعرفةِ العقليَّةِ البرهانيَّة.

إذ يرى أنَّ الإدراك الحقيقيّ لأسرار الوجود لا يتمُّ فقط بالنَّظر العقليّ المجرد، بل يحتاجُ إلى تصفيةِ الباطنِ والسّلوكِ الَّذي يفضي إلى الكشفِ العرفانيّ.

ويظهر ذلك في حواشيه على كتب الفلسفة والكلام، مثل حاشيته على شرح طوالع الأنوار، حيث يؤكّد أنَّ بعضَ الحقائقِ لا يدركها إلا أهل الذوق والشهود.

٢- التوفيق بين الفلسفة والعرفان: لم يكن نصير الدّين الكاشانيّ صوفيًّا خالصًا أو فيلسوفًا متعصبًا، بل كان من دعاة التوفيق بين المدرسة المشائيَّة (العقليَّة) والمدرسة الذوقيَّة (العرفانيَّة)، متأثّرًا بالخواجةِ نصير الدّين الطّوسيّ ونهج الجمع بين العقلِ والنقلِ.

رأيه: يرى أنَّ الحقائق التي يصلُ إليها العارفُ بالكشفِ هي نفسها الَّتي يحاولُ الحكيمُ (الفيلسوفُ) إثباتها بالبرهانِ، ولكنَّ طريق العارف أسرع وأكثر يقينًا.

ويظهر هذا التوجه في تعليقاته على كتاب «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا، إذ يدمج تفسير الفقرات الفلسفيَّة بتفسيرات عرفانيَّة تشير إلى حقائق الوجود والتَّوحيد.

٣- الاهتمام بمفهوم الولاية الإمامية: بوصفه من علماء الإماميَّة، كان للكاشانيِّ اهتمام بمقام الإمامة والولاية الإلهيَّة، وهو الأساس الذي بنى عليه تلميذه السيد حيدر الآملي مشروعه العرفانيّ الشيعيّ، حيثُ كان يعتقدُ الكاشانيُّ بدورِ الولايةِ الباطنيَّةِ للأئمَّةِ كقناةٍ للفيضِ الإلهي، وكمال المعرفة، حتَّى لو لم يصل إلى العمقِ النَّظريّ الذي وصل إليه السّيد حيدر الآمليّ في مفهومِ الولايةِ الكليَّة.

٤- الإشاراتُ إلى اصطلاحاتِ وحدةِ الوجود: على الرّغم من كونه حريصًا في تعاملهِ مع مذهبِ وحدةِ الوجودِ الصَّريح (كفكرِ ابن عربيّ)، إلَّا أنَّ شروحه وتحقيقاته تضمنت إشارات إلى مفاهيم مثل:

أ- الفيض الأقدس والفيض المقدس: كطريقٍ لتفسيرِ كيفيَّة صدور الكثرةِ عن الواحد[٦٧].

ب- الحقيقة المحمَّديَّة: كأول تعيّن وواسطة بين الحقِّ والخلق[٦٨].

ملاحظة: تُستقى هذه الآراء بشكلٍ أساسيٍّ من:

١- حواشيه وتعليقاته على شروح تجريد العقائد (للطوسي) وطوالع الأنوار (للبيضاوي)[٦٩].

٢- تعليقاته على الإشارات والتنبيهات (لابن سينا)[٧٠].

الخَاتِمَةُ

المَدْرَسَةُ الحِلِّيَّةُ مَثَّلَت مَرْحَلَةَ دَمْجٍ نَاجِحَة؛ حَيْثُ نَقَلَت الفِكْرَ العِرْفَانِيَّ مِنْ كَوْنِهِ تَيَّارًا مُنْعَزِلًا أَوْ مُجَرَّدًا إِلَى كَوْنِهِ جُزْءًا أَصِيلًا وَمُؤَصَّلًا ضِمْنَ البِنْيَةِ الحَوْزَوِيَّةِ وَالمَدْرَسِيَّةِ لِلْفِكْرِ الإِمَامِيِّ، بِتَأْثِيرٍ مُبَاشِرٍ مِنْ أَعْلَامِهَا الَّذِينَ لَمْ يَكْتَفُوا بِالنَّقْلِ العَقْلِيِّ بَلْ أَقَرُّوا بِوُجُودِ مُسْتَوًى أَسْمَى مِنَ الإِدْرَاكِ المَعْرِفِيِّ.

وَبِنَاءً عَلَى المُعْطَيَاتِ الحَوْزَوِيَّةِ وَالبَحْثِيَّةِ، وَإِقْرَارًا بِالدَّوْرِ التَّارِيخِيِّ لِعُلَمَاءِ الحِلَّةِ، فَإِنَّ النَّتِيجَةَ المَحْوَرِيَّةَ لِبَحْثِ «الأَثَرِ المَحْوَرِيِّ لِلْمَدْرَسَةِ الحِلِّيَّةِ فِي صِيَاغَةِ الفِكْرِ العِرْفَانِيِّ الإِمَامِيِّ» يُمْكِنُ صِيَاغَتُهَا بِأَنَّ البَحْثَ أَثْبَتَ بِأَنَّ المَدْرَسَةَ الحِلِّيَّةَ لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ مَرْكَزٍ لِلْفِقْهِ وَالأُصُولِ (مَعَ أَهَمِّيَّتِهِمَا)، بَلْ كَانَتْ نُقْطَةَ تَحَوُّلٍ مَحْوَرِيَّةٍ أَسْهَمَتْ بِشَكْلٍ كَبِيرٍ فِي صِيَاغَةِ الفِكْرِ العِرْفَانِيِّ الإِمَامِيِّ مِنْ خِلَالِ تَأْصِيلِ العِرْفَانِ النَّظَرِيِّ وَالعَمَلِيِّ، وَكَسْرِ الحَاجِزِ المَعْرِفِيِّ، حَيْثُ قَامَتِ المَدْرَسَةُ الحِلِّيَّةُ، خُصُوصًا بَعْدَ ظُهُورِ شَخْصِيَّاتٍ مِثْلِ الخَوَاجَةِ نَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسِيِّ وَابْنِ مَيْثَمٍ البَحْرَانِيِّ، بِإِحْدَاثِ تَقَارُبٍ وَتَفَاعُلٍ بَيْنَ الفَلْسَفَةِ المَشَّائِيَّةِ (العَقْلَانِيَّةِ) وَعِلْمِ الكَلَامِ الإِمَامِيِّ والعرفان، هَذَا التَّفَاعُلُ مَهَّدَ الطَّرِيقَ لِقَبُولٍ وَنُضْجِ العِرْفَانِ النَّظَرِيِّ (التَّصَوُّفِ الفَلْسَفِيِّ)، حَيْثُ أُدْرِجَتِ المَعَارِفُ العِرْفَانِيَّةُ ضِمْنَ الأَبْحَاثِ العَقْلِيَّةِ، مِمَّا أَخْرَجَهَا مِنْ حَيِّزِ الانْغِلَاقِ إِلَى حَيِّزِ التَّدَاوُلِ العِلْمِيِّ المَدْرَسِيِّ، وعملوا على الجَمْعِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالحَقِيقَةِ (العِرْفَانِ العَمَلِيِّ) حَيْثُ تَمَّ الاعْتِرَافُ بِوُجُودِ «نَوْعٍ أَسْمَى مِنَ المَعْرِفَةِ» (المَعْرِفَةِ العِرْفَانِيَّةِ) إِلَى جِوَارِ المَعْرِفَةِ العَقْلِيَّةِ (الكَلَامِيَّةِ) وَالمَعْرِفَةِ النَّقْلِيَّةِ (الحَدِيثِيَّةِ).

هَذَا التَّكَامُلُ سَاعَدَ عَلَى صِيَاغَةِ مَنْهَجٍ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّعَبُّدِ الشَّرْعِيِّ الصَّارِمِ (الفِقْهِ الحِلِّي) وَالرِّيَاضَاتِ وَالمُجَاهَدَاتِ العِرْفَانِيَّةِ، وَظَهَرَ ذَلِكَ بِشَكْلٍ خَاصٍّ فِي أَعْمَالِ

مُتَأَخِّري المَدْرَسَةِ (مِثْلِ ابْنِ فَهْدٍ الحِلِّي الَّذِي كَانَ يُمَثِّلُ تَيَّارًا عِرْفَانِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا بَارِزًا).

ولَمْ يَقْتَصِرْ دَوْرُ المَدْرَسَةِ الحِلِّيَّةِ عَلَى عُصُورِهَا، بَلْ إِنَّهَا كَانَتِ الرَّكِيزَةَ الَّتِي انْتَقَلَ مِنْهَا هَذَا التَّيَّارُ الفِكْرِيُّ إِلَى المَرَاكِزِ العِلْمِيَّةِ اللَّاحِقَةِ (كَأَصْفَهَانَ وَالنَّجَفِ)، حَيْثُ تَبَلْوَرَ الفِكْرُ العِرْفَانِيُّ الإِمَامِيُّ بِوُضُوحِهِ وَشُمُولِيَّتِهِ فِي المَرَاحِلِ التَّالِيَةِ، مُسْتَنِدًا إِلَى البِنْيَةِ التَّحْتِيَّةِ الَّتِي أَسَّسَتْهَا مَدْرَسَةُ الحِلَّةِ.

التَّوْصِيَاتُ البَحْثِيَّةُ وَالتَّنْظِيرِيَّةُ: أُوصِي بِإِجْرَاءِ دِرَاسَاتٍ حَدِيثَةٍ مُعَمَّقَةٍ تُرَكِّزُ عَلَى كَيْفِيَّةِ المُزَاوَجَةِ المَنْهَجِيَّةِ بَيْنَ الأَدَوَاتِ العَقْلِيَّةِ البُرْهَانِيَّةِ (المُسْتَمَدَّةِ مِنْ عِلْمِ الكَلَامِ وَالفَلْسَفَةِ الحِلِّيَّةِ) وَالأَدَوَاتِ الحَدْسِيَّةِ الكَشْفِيَّةِ فِي مُصَنَّفَاتِ أَعْلَامِ هَذِهِ المَدْرَسَةِ، وَتَحْدِيدِ مَا إِذَا كَانَ هَذَا التَّزَاوُجُ قَدْ أَسَّسَ لِمَنْهَجٍ عِرْفَانِيٍّ خَاصٍّ يَخْتَلِفُ عَنِ المَنْهَجِ الإِشْرَاقِيِّ أَوِ العِرْفَانِيِّ النَّظَرِيِّ المَحْضِ واتخاذ ملا صدرا أنموذجًا لهذه الدراسة.

كَمَا أَنْصَحُ بِتَخْصِيصِ بُحُوثٍ لِدِرَاسَةِ تَطَوُّرِ مَفْهُومِ «الوِلَايَةِ» (وِلَايَةِ الأَئِمَّةِ) كَمَا صَاغَتْهُ المَدْرَسَةُ الحِلِّيَّةُ، وَمُقَارَنَتِهِ بِالمَفَاهِيمِ العِرْفَانِيَّةِ العَامَّةِ لِلْوِلَايَةِ، لِتَحْدِيدِ أَثَرِ هَذِهِ المَدْرَسَةِ فِي تَأْصِيلِ العِرْفَانِ الإِمَامِيِّ ضِمْنَ دَائِرَتِهِ العَقَدِيَّةِ الخَاصَّةِ، وتتبع مَدَى تَأْثِيرِ المَفَاهِيمِ العِرْفَانِيَّةِ الَّتِي اعْتَمَدَهَا عُلَمَاءُ الحِلَّةِ فِي مصنَّفاتهم التَّفْسِيرِيَّةِ، وَاسْتِكْشَافِ مَا إِذَا كَانَ هُنَاكَ «ذَوْقٌ عِرْفَانِيٌّ» قَدْ أَثَّرَ فِي تَرْجِيحَاتِهِمُ التَّفْسِيرِيَّةِ، كما أُوصِي بِالعَمَلِ عَلَى تَحْقِيقِ وَنَشْرِ المَخْطُوطَاتِ الَّتِي لَمْ تُنْشَرْ بَعْدُ لِأَعْلَامِ الحِلَّةِ مِمَّنْ كَانَ لَهُمُ اهْتِمَامٌ بِالجَانِبِ العِرْفَانِيِّ، أَوِ الفَلْسَفِيِّ المُؤَثِّرِ فِي العِرْفَانِ، لَاسِيَّمَا الرَّسَائِلُ القَصِيرَةُ وَالتَّعْلِيقَاتُ، لِلْكَشْفِ عَنْ تَفَاصِيلَ دَقِيقَةٍ قَدْ تَكُونُ غَائِبَةً فِي المَصَادِرِ الكَبِيرَةِ.

وإِنْشَاءُ فِهْرَسٍ تَحْلِيلِيٍّ لِلْمَادَّةِ الرِّوَائِيَّةِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا عُلَمَاءُ الحِلَّةِ فِي بِنَاءِ نَظَرِيَّتِهِمُ العِرْفَانِيَّةِ، لِتَحْدِيدِ مَدَى اعْتِمَادِهِمْ عَلَى أُصُولٍ مُحَدَّدَةٍ (كَأُصُولِ الكَافِي أَوْ بَصَائِرِ الدَّرَجَاتِ وَغَيْرِهِمَا) فِي هَذَا البَابِ.

الهوامش

(١) كلمة الغُنُوصيِّ هي صفة (منسوبة) تُشير إلى الفرد الَذي يعتنق أو يتبع الغُنُوصِيَّةَ (Gnosticism)، والكلمةُ مشتقة من الكلمة اليونانية «غنوسيس» ، وتعني: المعرفة أو العرفان.

معنى المصطلح العقائدي/ الفلسفي:

الغُنُوصيُّ هو الشخص الذي يؤمن بـ:المعرفة الباطنية (الغنوص): الاعتقاد بأن الخلاص أو التحرر من العالم المادي لا يأتي عن طريق الإيمان أو الأعمال فقط، بل من خلال معرفة روحية شخصية، سريَّة، وباطنيَّة (كشفيَّة أو إشراقيَّة أو حدسيَّة).

ثنائية العالم: غالباً ما يؤمن الغنوصيون بأنَّ العالم المادي (الذي نعيش فيه) هو عالم شرير أو مشوه، خلقه إله أدنى (يُدعى «الديميورغوس» في بعض الأحيان)، بينما الإله الحقيقي هو إله الخير والنور الذي لا يمكن الوصول إليه إلا عبر المعرفة (الغنوص).

الخلاص بالمعرفة: هدف الغنوصي هو الحصول على هذه المعرفة الباطنية؛ لتمكين روحه من التحرّر من سجن الجسد والعالم المادي، والعودة إلى العالم الروحي.

فالغُنُوصيُّ هو المُغَترِفُ أو العَارِفُ (بمعنى الباطني أو الإشراقي)، وهو فرد ينتمي إلى تيار فكري/ ديني ظهر في القرون الميلادية الأولى (خاصَّة بين الطَّوائف اليهوديَّة والمسيحيَّة المبكرة)، وركز على المعرفة الذاتيَّة السريَّة كطريق وحيد للخلاص.

في السياق الإسلامي: قد يُستخدم هذا المصطلح أحياناً لوصف بعض التيارات الباطنيَّة أو المتصوّفة التي تعتقد بوجود تأويلات خفيَّة للنصوص وأنَّ الحكماء هم وحدهم من يصلون إلى ما وراء الظواهر.

(٢) موسوعة طبقات الفقهاء ٦/ ٢٤٦.

(٣) شرح الإشارات والتنبيهات ١/ ١.

(٤) لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، ٩/ ٢٣٦ (عرف).

(٥) القيصري، شرف الدين محمود، رسائل القيصري، رسالة التوحيد والنبوة والولاية، ص ٧، نقلاً عن: حسيني، السيد قوام الدين، العرفان الإسلامي، المركز الدراسات والتحقيقات الإسلامي، قم، ص ١٩.

(٦) مبادئ العرفان النظري، ص ٨.

(٧) مرتضى، مطهري، العرفان، ص ٢٢.

(٨) العرفان، ص ١٤.

(٩) شرح الإشارات والتنبيهات ١/ ١.

(١٠) الإقبال بصالح الأعمال، السيد ابن طاووس (المقدمة)، و كشف المحجة لثمرة المهجة،١/ ١٠.

(١١) الكنى والألقاب، ١/ ٤٣٣.

(١٢) منهاج الكرامة ١/ ٥٩.

(١٣) ٤٢٠،٤٠٠ جامع الأسرار و منبع الأنوار.

(١٤) جامع الأسرار ومنبع الأنوار/ ٤٧٢.

(١٥) راجع: الإشارات والتنبيهات ٣/ ٣٦٩

(١٦) نهج الحق وكشف الصدق، ص٥٧.

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) منهاج الكرامة ١/ ٥٩.

(١٩) أعيان الشيعة ٩/ ٤١٦

(٢٠) شرح الاشارات و التنبيهات ٣/ ٣٦٣.

(٢١) المصدر نفسه، ٤،/ ٩٧ – ٩٨.

(٢٢) بحار الأنوار/ رقم الحديث ٥١٨٨٥٨، ٧٤/ ١٦٤.

(٢٣) المصدر نفسه/ رقم الحديث ٢٣٤٦١٩، ٢٥/ ٢٠٥.

(٢٤) أعيان الشيعة ١٠/ ١٩٧.

(٢٥) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني، ٥/ ٢٥٤.

(٢٦) رقم الحديث ٢٢١٥٢٧، بحار الأنوار ٢/ ٣٢.

(٢٧) شرح نهج البلاغة ٥/ ٢٥٤.

(٢٨) المصدر نفسه ٤/ ٥٣.

(٢٩) المصدر نفسه ٢/ ١٣٢.

(٣٠) الكنى والألقاب، ١/ ٤٣٣.

(٣١) أعيان الشيعة، ٨/ ٣٥٨.

(٣٢) الفوائد الرضوية في أحوال علماء مذهب الجعفرية/ ج ١،ص٥٤٢.

(٣٣) بحار الأنوار ١/ ١٢.

(٣٤) وصفه العلامة الحلي في «منهاج الصلاح» بأنه «أعبد من رأيناه من أهل زمانه».

(٣٥) وصفه السيد ابن عنبة في «عمدة الطالب» بأنه «السيّد الزاهد».

(٣٦) كشف المحجة لثمرة المهجة، ١/ ١٠.

(٣٧) المصدر نفسه ١/ ١٠.

(٣٨) أعيان الشيعة، ٣/ ١٤٧.

(٣٩) أعيان الشيعة، ٣/ ١٤٧.

(٤٠) المهذب البارع في شرح المختصر النافع ١/ ٦.

(٤١) أعيان الشيعة، ٣/ ١٤٧.

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) المصدر نفسه، ٦/ ٢٧١.

(٤٥) تفسير المحيط الأعظم، الآملي، حيدر، ١/ ٤٧.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) أعيان الشيعة ٦/ ٢٧٢.

(٤٨) معرفة الله ٣/ ٢٠.

(٤٩) أعيان الشيعة ٦/ ٢٧٣.

(٥٠) المصدر نفسه ٦/ ٢٧٣.

(٥١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص٦٩-٩٠، ونص النّصوص في شرح فصوص الحكم، (الكتاب بأكمله شرح لوحدة الوجود وتجلياته)

(٥٢) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ٢٢٣/ ٢٤٠.

(٥٣) المصدر نفسه، ص٤٠٠/ ٤٢٠، و: المحيط الأعظم والبحر الخضم في تفسير القرآن الأعظم. يعرض هذا المفهوم في تفسير الآيات المتعلقة بالولاية.

(٥٤) كوربين، سيد حيدر آملي؛ متألّه شيعي عالَم تصوف ، ص ١٤٠.

(٥٥) المصدر نفسه.

(٥٦) العرفان الشيعي.

(٥٧) المصدر نفسه.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) المصدر نفسه.

(٦٠) الحديث والرجال والتراجم ٨/ ١٥٩. أعيان الشيعة ٨/ ٣٠٩.

(٦١) أعيان الشيعة ٧/ ٣٠٩، ٤٤٨.

(٦٢) الكنى والألقاب ٣/ : ٢٥٣

(٦٣) المصدر نفسه، ٣/ ٢٥٣

(٦٤) المصدر نفسه.

(٦٥) الحديث والرجال والتراجم، ٨/ ١٥٩.

(٦٦) الحديث والرجال والتراجم ٨/ ١٥٩.

(٦٧) في مباحث التَّوحيد و العدل، وخاصة عند شرح مسألة الفيض وكيفيَّة صدور الكثرةِ عن الواحدِ، تجدُ ذلك في الحواشي على شرحهِ تجريد العقائد، (للطوسي)

(٦٨) المصدر نفسه.

(٦٩) تجد دفاعه عن المعرفة الذوقية وقبول الكشف مصدرًا للمعرفة في المسائل العويصة مقدمة الكتاب، وفي شرح مباحث الوجود والماهية، ومبحث الصفات الإلهية.

(٧٠) تجد محاولته التوفيق بين منطق البرهان (الفلسفة) ومنطق الشهود (العرفان) في نمط الإشارات والتنبيهات الرابع (في الوهم) والنمط العاشر (في مقامات العارفين)، حيث يبدأ ابن سينا الحديث عن العرفان والسلوك.

المصادرُ والمراجعُ

١. أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١) تحقيق وتخريج: حسن الأمين.

٢. الاشارات والتنبيهات، الحسين بن علي ابن سينا، شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق سليمان دنيا، مؤسسة النعمان، ١٩٩٢م.

٣. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، المكتبة النجفية، ٢٠٢٣م.

٤. تلخيص المرام في معرفة الأحكام: الحسن بن يوسف بن علي المطّهر [العلّامة الحلّي]، تحقيق هادي القبيسي، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٤٢١ هـ.

٥. جامع الأسرار ومنبع الأنوار في رسالة نقد النقود في معرفة الوجود، السيد حيدر الآملي، طهران، شركة المنشورات العلمية والثقافية، ٢٠٠٢م.

٦. جامع الأسرار ومنبع الأنوار، السيد حيدر الآملي، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.

٧. شرح الاشارات والتنبيهات: للمحقق الخواجة نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ)، نشر البلاغة، قم المقدسة، ١٣٧٥ هـ ش.

٨. شرح نهج البلاغة: العلامة كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٧٩ أو ٦٩٩هـ)، دار الحبيب، ١٤٣٠هـ.

٩. العرفان الإسلامي: السيد قوام الدين، الحسيني، مركز الدراسات والتحقيقات الإسلامي، قم.

١٠. العرفان، مرتضى، مطهري، بيروت، دار المحجّة البيضاء، ط ١، ١٩٩٢م.

١١. الفوائد الرضوية في أحوال علماء المذهب الجعفرية، الشيخ عباس القمي، ترجمة وتحقيق ناصر باقري بيدهندي، قم، نشر بوستان كتاب، ١٣٨٥ هـ ش.

١٢. كشف المحجة لثمرة المهجة: ابن طاووس، علي بن موسى، تحقيق وتصحيح حسون، محمد، بوستان كتاب، قم، ١٣٧٥ ش.

١٣. الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي، تقديم: محمد هادي الأميني، طهران، مكتبة الصدر.

١٤. كوربين، هنري، سيد حيدر آملى؛ متألّه شيعي عالم تصوف، ترجمة: ع. روح بخشان، في: محمد كريمى زنجانى اصل، عرفان شيعى به روايت سيد حيدر آملى

(بالفارسية)، طهران: اطلاعات، ١٣٨٥ ش.
١٥. لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، ابن منظور الأنصاري (ت ٧١١هـ)، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.
١٦. مبادئ العرفان النظري، رحيميان، سعيد، طهران: مؤسسة سمت، ط ٤، ١٣٨٨هـ.
١٧. معرفة الله، محمد الحسين الحسيني الطهراني، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٩٩٩م.
١٨. منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، الحسن بن يوسف بن المطهر (العلّامة الحلّيّ)، تحقيق عبد الرحيم مبارك، مشهد المقدسة، مؤسسة عاشوراء للتحقيق والدراسات الإسلامية، ١٤٢١هـ.
١٩. المهذب البارع في شرح المختصر النافع: جمال الدين، أحمد بن محمد الأسدي، تحقيق: مجتبى عراقي، دفتر انتشارات إسلامي، وجامعة المدرسين الحوزة العلمية، قم، ١٤٠٧ هـ ق.
٢٠. موسوعة طبقات الفقهاء: اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.
٢١. نص النصوص في شرح الفصوص: السيد حيدر الآملي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ٢٠١٨م.
٢٢. نكت النهاية: المحقق الحلّي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٢هـ.
٢٣. نهج الحّق وكشف الصدق: العلّامة حسن بن يوسف بن مطهر الحلّيّ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.